الميزاب الذهبي

ALTINOLUK

مجلة فصلية - العدد الخامس والعشرون (نيسان/ أيّار/ حزيران ٢٠١٨)

بذور الخير

لمَ ينبغي على المسلم أن يكون حذراً؟

كيف يُقبل الدعاء؟

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

أيها الأخوة القرآء:

إن الأمم تعمل على استمرار حياتها على ساحة التاريخ من خلال عناصر الدين واللغة والمشاعر التاريخية. والغاية من الدين والخلقة والفطرة هي أنها تمثل مجموعة قوانين إلهية أعدت لتنظيم الحياة بين الحياة والموت، لتكون وسيلة لسعادة العبد في الدنيا والآخرة.

فاللغة وسيلة للتعبير عن الحق والحقيقة، أما التاريخ فهو الشعلة التي تضيء للأمم طريق المستقبل بتحليل وتثبيت أسباب الأحداث، التي عاشتها الإنسانية في إطار هذين العنصرين، وتحليل نتائجها. وهذه العناصر لا يمكن أن تنفصل عن بعضها البعض.

فمن ناحية التاريخ يجب علينا معرفة تاريخنا بهويـّته الحقيقية، وإلا فإننا لن نتمكن أبدًا من تقديم تلك الحضارة العالمية بشكل صحيح. وذلك بسبب الأعمال، التي كتبها المؤرخون المحليون من أصحاب النوايا السيئة، والمؤرخون الأجانب الذين عُرِفُوا بعداوتهم للإسلام، ولا يمكننا معرفة ماضينا بالشكل اللائق وتقويم مستقبلنا من خلاله. ولهذا فإن اغتنام ميراثنا التاريخي الذي تركه أجدادنا المشرفون، وجعل هذا الميراث ينعكس على إدراك وشعور أبسط فرد في أمتنا لَيُعَد وظيفة دينية وقومية.

والتاريخ يشهد على أن الأمم والأفراد ينظّمون حياتهم في ضوء التجارب التي عاشوها، والتاريخ هو ذاكرة الأمة، ونتاج التجارب القومية. ولهذا فإنه كما أن الفرد لا يستطيع العيش بدون تلك التجارب التي عايشها، فإن الأمم أيضًا دائمًا تحتاج إلى إيقاظ وإرشاد الأحداث التاريخية السابقة.

إن الصعود والهبوط في أقدار الأمم، إنما يعني مجموعة متراكمة من التجارب، التي ستنقل إلى مستقبلها. ومقارنة أسباب ونتائج تلك التجارب القديمة بشكل سليم مع الأحداث الجديدة، تضيء المستقبل للأمم.

و إذا تعرفت الأمم على تاريخها الحقيقي وعلى مرشدها المادي والمعنوي وقدّرهما حق تقدير، فإنها تكون بذلك الأمة المتحضرة العظيمة. وإذا الأجيال الجديدة تعرفوا على تاريخهم بشكل أفضل من تواريخ الآخرين، واعتبروا بالماضي فلا داعي للقلق حينئذ من المستقبل. يقول الله تعالى:

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ (الزخرف، ٥٦)

الميزاب الذهبي

مجلة فصلية

العدد الخامس والعشرون

(نيسان/ أيّار/ حزيران ٢٠١٨)

رئيس التحرير

بيت اللهّ دميرجي اغلوا

مدير التحرير

حسام يوسف

هيئة التحرير

بيت اللهّ دميرجي اغلوا

حسام يوسف

آدم أزدمير

د. مراد قايا

التصحيح والتدقيق اللغوي

أ. حسن مرشد

أ. ابراهيم الحسن

التصميم والتنضيد والاخراج الفني

حسام يوسف

إدارة المجلة.

Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60 / 3C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Tel:+90 212 671 07 00 Faks:+90 212 671 07 48

دار النشر والطباعة

Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60 / 3C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Tel:+90 212 671 07 00 Faks:+90 212 671 07 48

الإشتراك

لكي تصلكم المجلة بشكل دوري
يمكنكم الإشتراك سنوياً بمبلغ ٣٠ دولار

كما يمكنكم المساهمة بإرسال المقالات والملاحظات على عناوين المجلة

للمراسلة

almizab2011@hotmail.com
almizab2011@gmail.com

المحتويات

٣

لمَ ينبغي على المسلم أن يكون حذراً؟

أحمد طاش غَتيرن

٧

طهارة القلب

د. آدم أركول

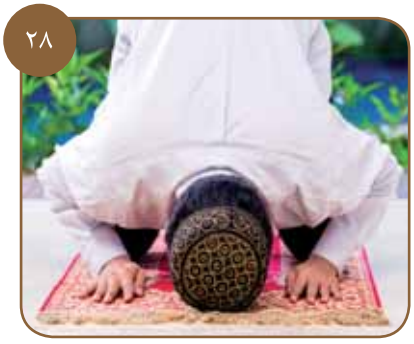

٢٨

التصوف -٤-

الأستاذ: عثمان نوري طوبّاش

٤٣

الوسوسة وسبل الخلاص

د. سليم آرك

كلمة التحرير	١	اختيار أول خليفة في الإسلام	٢٦
لمَ ينبغي على المسلم أن يكون حذراً؟	٣	نحن وذكر الله	٢٧
طهارة القلب	٧	التصوف -٤-	٢٨
هاجس الآخرة	١٠	الدين والتدين	٣٦
التطهير	١٢	نمط الحياة الذي رسمه الإسلام	٤٠
الدعاء	١٥	الوسوسة وسبل الخلاص	٤٣
جوهر العبادات الخفي	١٦	إني رأيت الموت	٤٦
انتبه لقلبك في الصلاة	٢٠	الإنصاف من النفس	٤٨
المساواة	٢٢	كعب بن مالك رضي الله عنه	٥٢
لا تلوث نفسك بأدران الدنيا	٢٣	مكانة الأب في عالم الطفل	٥٦

ملاحظة: المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

لمَ ينبغي على المسلم أن يكون حذراً؟

أحمد طاش غَتيرن

مثل سيدنا يوسف عليه السلام...

إن مقاومة الإنسان للمعصية، وحرصه الشديد على صيانة نفسه منها تتجلى بأبهى صورها في يوسف عليه السلام. وذلك بأن يستطيع أن يقول: "معاذَ الله!".

عندما تُغلق الأبواب، وتُسدُّ المنافذ، ويُظن أنه قد أُعد أنسب مكان لاقتراف المعصية بعيداً عن أعين الناس.

عندما تتزين امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجاهٍ وجمالٍ بأجمل زينةٍ، وتُجهِّز كلَّ شيءٍ لتقديم نفسها لأجمل بني البشر يوسف... عندما يُعد كل شيء، وتُتخذ كافَّةُ التدابير الأمنية لاقتراف المعصية، وتناديه: "هيت لك"...

ويتمكن من الهرب من تلك المرأة التي راودته عن نفسه، وفعلت كلَّ شيء لعرض نفسها عليه... الهرب الذي أدى إلى تمزيق قميصه...

ثم هو يستطيع أن يقول:

ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ! رغم تعرضه للافتراء والتهمة... ولخطر العقاب والإلقاء به في غياهب السجن.

غير أنَّه يحافظ على طهارته وعفته رغم كل شيء...

فهذه هي العبوديَّةُ الخالصة لله تعالى، والتي يشير إليها القرآن بقوله:

﴿قل إني أمرت أن أَعْبُدَ الله مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾

(الزمر: ١١)

إن ما تعرض له يوسف عليه السلام يُعد من أشقِّ وأصعب أشكال الامتحان والابتلاء...

والله سبحانه وتعالى يقدم هذه القصة في كتابه العزيز إلى جانب القصص الأخرى ويصفها بأنها

"أحسن القصص"، ويضعها أمام الإنسانية كمثال ونموذج يحمل الكثير من العبر والعظات. وكأنَّه يقول لنا:

إنَّ الإنسان قد يتعرض لحالات تُقدَّم له فيها أكثرُ المُغريات والعروض جاذبيةً ليتجاوز حدود ربه التي لا ينبغي له أن يتعدَّاها ويتجاوزها.

هناك أمورٌ يمكن للشيطان أن يزينها أمام عين الإنسان، وينصبها شِراكاً له في طريقه، ويدفعه بوساوسه إلى البحث عن أساليب لاستساغتها وتحليلها، وذلك مثل: نقاط ضعف الجنسين تجاه بعضهما، والهواجس حول الأبناء والأهل، وحبِّ المال والملك، وحب الرئاسة والسلطة وغيرها.

ففي مثل هذه الميادين قد يتمكن الشيطان من تطويق رقبة الإنسان بزمام متين، ويجرُّه نحو أهوائه وشهواته... فكيف سيقف الإنسان أمام هذه الأمور، وكيف سيقاوم في هذه الميادين؟

كيف سيتمكن من قول: معاذ الله؟

لو نظرنا إلى امرأة الملك، وكيف اختلقت معاذير ومبررات تسوِّغ لها الوقوع في تلك الدوامة، وكيف قطَّعَت النِّسوة اللاتي قدمت لهن السكاكين كيف قطعن أيديهن عندما أدخلَت عليهنَّ يوسفَ عليه السلام، وإلى قولها:

﴿...فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمتُنَّنِي فِيهِ...﴾ (يوسف: ٣٢)

وهي تشير إلى ضلال الإنسان وانحرافه عن جادة الصواب، وبحثه أو اختلاقه لمبررات ضلاله، لو نظرنا إلى كل ذلك فإننا نجد أن قول: "**معاذ الله**" ليس بالأمر السهل إطلاقاً.

يقول أبو يزيدَ البسطاميُّ رحمه الله تعالى محذراً:

إذا عصيتَ الله تعالى فلا تعصِه بعضو أعطاك إياه.

فقيل له: وهل هناك عضوٌ غيرُ ما أعطاه الله؟

وقال: إذا عصيتَ الله فلا تعصِه في مكانٍ يراكَ فيه.

فقيل: وهل من مكان لا يراه الله؟

وقال: إذا عصيت الله فلا تعصه في أرض خلقها.

فقيل: وهل من أرض غير ما خلقها الله تعالى؟.

فقال: إذاً؛ فلِم تعصي الله؟ ولِمَ تعتدَّى الحدود التي وضعها لك؟

إنَّها أسئلة محرجةٌ وإجاباتٌ مدهشةٌ، أليس كذلك؟

فمن تحققت العبودية الخالصة لله تعالى في قلبه وباطنه مثل يوسف عليه السلام يقول إذا ما أراد استعمال يده في المعصية: "إن يدي هذه هبةٌ وهبها الله لي، ومن ثَم فلن أستعملها في أمر لا يرضيه"، وكذلك يفعل عندما يستعمل لسانه، ورجله، وأذنه...

وإذا ما دُعي إلى معصية قال: "**إنَّ الله يراني**". وكذلك يقول: ليس من الفضيلة أن أعتدي على حق الله في أرض خلقها الله، ووضعها في خدمتي".

هل التأسي بيوسف عليه السلام أمر سهل ويسير؟

حتماً لا.

ينبغي أن يصبح الإنسان عبداً عامر القلب بالإخلاص.

قال أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى:

(الإخلاصُ إفرادُ الحق سبحانه في الطاعة بالقصدِ، وهو أن يريدَ بطاعته التقرّبَ إلى الله تعالى دون شيء آخرَ، مِن تَصنُّع لمخلوق، أو اكتسابِ محمدةٍ عندَ الناس، أو محبةِ مدحٍ لمخلوقٍ، أو معنًى مِن المعاني سوى التقربِ إلى الله تعالى. وقال: ويصحُّ أن يقالَ: الإخلاصُ تصفيةُ الفعلِ عن ملاحظةِ المخلوقين).

فكيف يُعمَّر القلب بالإخلاص؟

يُعمر القلب بالإخلاص من خلال القيام في الأسحار والوقوف بين يدي المولى عزَّ وجلَّ، وإجراء مراجعة ومحاسبةٍ شاملةٍ للنفس عن أعمالها في الأمسِ، واليوم، والغد. والوقوف على البقع السوداء التي ظهرت في القلب، وتطهيرها وإزالتها... والدخول تحت مظلة والمستغفرين بالأسحار ... من خلال قرع أبواب المغفرة والعفو في أوقات السحر..."

غير أنَّ من أراد القيام في السحر فعليه عدم تلويث النهار بالموبقات...

ومن قام السحر فعليه أن يمدَّ شرياناً قلبيًّا نقيًّا من فيوض السحر إلى ساعات النهار...

انظر بماذا أجاب أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لما سأله عمر رضي الله عنه: ما التقوى؟ حيث قال له:

أما سلكت طريقاً ذا شوك؟

قال عمر: بلى.

قال: فما عملْتَ؟

قال: شمرْتُ واجتهدْتُ.

فقال: فذلك التقوى.

خلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقى

واصنعْ كماشٍ فوق أرضِ الشَّوك يَحذر ما يرى

إنَّ السير في الحياة الدنيا كالسير في طريق محفوف بالأشواك. وهو امتحان للإنسان. وعلى الإنسان أن يكون متيقظاً، ويعيش أو يسير بحذر. خاصة وأن الشيطان وهو العدو اللدود للإنسان يمتلك قدرةً كبيرةً تمكنه من النفوذ إلى شرايين الإنسان وعروقه، وفوق ذلك فإن في باطن الإنسان طاقةٌ تعين الشيطان عليه وتعمل معه يداً بيد ألا وهي النفس الأمارة بالسوء. فعلى الإنسان أن يفتح عينيه جيداً لأنه أمام عدو يأتيه ويباغته من كل الجهات، و بحسب البيان القرآني يأتيهم:

﴿...مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ...﴾ (الأعراف: ١٧)

فعلى الإنسان التحلي بالحذر، واليقظة... وتقلّد الأسلحة الدفاعية. والمحافظة على نقاوته وطهارته. والبعد عن ملوثات الذنوب والمعاصي.

روى عطية بن عروة السعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدعَ ما لا بأسَ به حذراً لما به البأس"

(الترمذي، القيامة، ١٩. انظر أيضاً: ابن ماجه، الزهد ٢٤)

لعل تنقية الوسط المعاش من الأوساخ...

وتنظيف المكان...

يكون حائلاً دون تلوث الهواء الذي نتنفسه.

وكل هذا من مستلزمات وضرورة صحة وسلامة علاقاتنا مع ربنا ﷻ.

فنحن نفتح أيدينا أمام ربنا عز وجل... ولكن كيف لنا أن نمد إليه أيدٍ ملطخةً بالأوساخ؟

وماذا عسانا أن نقول للخالق ﷻ بألسنة متلوثة؟

وهل يمكن لقلب لم يصغ إلى خطابه تعالى ولم يسمع كلامه أن يتوجه إليه ويناجيه؟

هناك أمورٌ يمكن للشيطان أن يزينها أمام عين الإنسان، وينصبها شِراكاً له في طريقه، ويدفعه بوساوسه إلى البحث عن أساليب لاستساغتها وتحليلها، وذلك مثل: نقاط ضعف الجنسين تجاه بعضهما، والهواجس حول الأبناء والأهل، وحبِّ المال والملك، وحب الرئاسة والسلطة وغيرها.

ففي مثل هذه الميادين قد يتمكن الشيطان من تطويق رقبة الإنسان بزمام متينٍ، ويجرُّه نحو أهوائه وشهواته...

لقد بحث أولياء الله تعالى طويلاً عن جواب السؤال الآتي:

كيف تُقبل الأدعية، أو كيف تُرد دون قبول؟

فوجدوا أن هذا الجواب يكمن في مستوى علاقة العبودية مع الله تعالى. فما هو مستوى تلك العلاقة المأمور بها، وما هي العلاقة مفيدة؟ إن كلام إبراهيم بن أدهم في هذا المضمار يوضح كل شيء بشكل جلي.

فذات يوم اجتمع الناس إلى إبراهيم بن أدهم، وقالوا له:

يا أبا إسحاق! إن الله تعالى يقول: "ادعوني أستجب لكم". فما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟

فقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله:

لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء.

فدهش الجميع وتعجبوا، فقالوا:

أتقول: قلوبنا ميتة؟

قال:أجل، إنها ميتة!

قالوا: وكيف ذلك؟

قال: إنكم جعلتم قلوبكم طعاماً لأسنان ذنوبكم ومعاصيكم المسمومة. فقضى سم الذنوب على شريان حياة القلب... والله تعالى لا يقبل دعاء قلوب ميتة.

فقيل له وما هي هذه الذنوب؟

فقال:

١. إنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه .
٢. زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته .
٣. قرأتم القرآن ولم تعملوا به.
٤. أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها .
٥. قلتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه، ولم تخالفوه.
٦. قلتم أن الجنة حق ولم تعملوا لها .
٧. قلتم أن النار حق ولم تهربوا منها .
٨. قلتم أن الموت حق ولم تستعدوا له .
٩. انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم .
١٠. دفنتم موتاكم ولم تعتبروا .

فكيف لدعاء مثل هذه القلوب أن يكون مظهراً للقبول؟

- إن تركتم الأمر بالمعروف لم يقبل دعاؤكم.

قراءة سير الصالحين من عباد الله المخلصين كالأنبياء والصحابة والتابعين والعلماء والفقهاء، والاطلاع على أخبارهم وما كان منهم يشير إلى الإخلاص في العمل، ومصاحبة أهل الإخلاص ممن يُعاصر،

يقول الحسن البصري:

(إنْ كان الرجلُ لقد جَمَعَ القرآن وما يَشعر به جارُه، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْرُ (أي: الزائرون) وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عملٍ يَقدرُون على أن يعملوه في سرٍّ فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوتٌ، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم عز وجل).[رواه البخاري]

القطار قلب

الدكتور: آدم أركول

إنَّ الطهارة أو النظافة كلمة تَبهج الأرواح وتشرحها. إن لهذه الكلمة الجميلة جانباً من شأنه أن ينشر الحسن والجمال حيثما حلّت. يخبرنا ربنا عزَّ وجل في القرآن الكريم أنَّه يحب المتطهرين من عباده، لافتاً الأنظار بذلك إلى العلاقة الوثيقة بين الطهارة والإيمان. ويريد من عباده أن يقفوا بين يديه طاهرين أنقياء. فيطلب من العبد الابتعاد عن كافَّة الأدران والأوساخ سواء كانت مرئية وغير مرئية، والحفاظ على الطهارة في سائر الأوقات، كما يريد منهم التجرد للنظافة والطهارة.

يولد الإنسان ويأتي إلى هذا العالم طاهراً نقياً. ومن ثَم فأولى مهامه هي حفظ نفسه من التلوث. فالحرص على عدم الاتساخ مهمٌّ للغاية. إلا أنك قد تتلوث أحياناً رغماً عنك. فتُدفع أحياناً أو تسقط في مستنقعات القذارة والأوساخ نتيجة اتباعك لهوى نفسك، أو إصغائك إلى وساوس الناس والشياطين المضللة، أو نتيجة خضوعك لتأثير المجتمع الذي تعيش فيه. وفي هذه الحالة فإنه من المهم جداً أن تتطهر في أقرب فرصةٍ ممكنة. فينبغي أولاً التطهر ثم الخروج في الرحلة نظيفاً نقياً، والوصول إلى حسن وجمال براق مشرق، إلى حياة طيبة. فهذا هو الهدف الإلهي الموضوع أمامنا. ولبلوغ مثل هذا الهدف لا بد من:

صون اللسان من التلوث. فاللسان يتلوث ويتسخ بالكذب، والغيبة، والنميمة، والكلمات الجارحة والبذيئة، وبالسب والشتيمة. فيجب أولاً الابتعاد عن هذه المياه الملوثة. لأنَّ الإنسان قد لا يجد فرصة للتطهر بعد التلوث والاتساخ. ومع ذلك فإن حصل تلوثٌ رغماً عنه فينبغي عليه بمجرد حصول ذلك الإسراع إلى التطهر دون إضاعة أي وقت. ويجب عليه بذل الجهد لإضفاء مزيد من النورانية على لسانه المنقى من التلوث، وجعله طاهراً خالياً من أية شائبة.

وذلك من خلال الكلمات الجميلة التي تبعث البهجة في القلوب، وبالعبارات النقية التي تدعو إلى الحق والخير، وبكلمة التوحيد، وبذكر الله تعالى وتلاوة القرآن الكريم...

حفظ العين من التلوث. فهناك النظرات الحرام، ومن شأنها تلويث العين من جهةٍ، وإطفاء نور القلب من جهةٍ أخرى ليحُلَّ فيه ظلام دامس. وهناك ذنوب وخطايا تُقترف من خلال إشارات وحركات الحاجب. وكذلك هناك مناظر ومشاهد بذيئة وقبيحة ما ينبغي أن يشاهدها الإنسان. فالعيون تتحول أحياناً إلى قنوات ملوثة يتدفق منها السم إلى عقل الإنسان وقلبه. إن العين من أجمل وأحسن الأنوار التي بين يدي الإنسان، ويجب المحافظة على هذا النور والحيلولة دون إطفائه. إذ ينبغي تحويل الجفون إلى درع يقي العين من الملوثات المرئية وغير المرئية على حد سواء. وقد أشار مولانا جلال الدين الرومي إلى أن العين الملوثة تطهر وتُنظف بالدموع. فالدموع التي تذرف وتفيض من خشية الله وبنية التطهر في غاية البركة. وقد استعاذ نبينا فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام من عينٍ لا تدمع. أجل، يجب الإبقاء على أعيننا نقية طاهرة، وذلك من خلال النظر إلى كل ما هو مشروع بعين المحبة، والتأمل بآيات ربنا في الأرض وفي السماء بعين الاعتبار، والنظر إلى كلامه المنزل بعين التفكر والتدبر.

صون الأذن/ السمع من التلويث. من الصعب أن يحمي الإنسان سمعه وهو يصغي إلى الأكاذيب، والشائعات، والنميمة، والمعاصي الكلامية، واللغو، ويستمع إلى أشكال الموسيقى التي تحتوي على المحرمات. فينبغي الابتعاد عن كافة الأماكن والمواضع الملوثة وتحاشيها قدر الإمكان. ويحتاج الأمر إلى التزام الإنسان بأشد درجات الحرص والدقة تجاه الأصدقاء، والحي الذي يعيش فيه، ومحيط العمل، والمجالس التي ينضم إليها. فهناك تحذيرات إلهية جدية وخطيرة في هذا المجال؛ حيث إنه يوصي بالاستماع إلى أحسن القول. ويقول: ﴿...إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ...﴾ (النساء: ١٤٠) أجل؛ ينبغي أن تبقى حاسة السمع لدينا طاهرةً نقيةً، وذلك من خلال الاستماع إلى أحسن الأقوال والعبارات، والإصغاء إلى الحكم، وإلقاء السمع لكلام ربنا ﷻ، وإرشاد الأولياء العارفين والعلماء الربانيين لنيل الفيوض، واقتباس الأنوار.

حفظ قلوبنا وأذهاننا من التلوث. إن أخطر أنواع التلوث الذي يصيب القلوب هو إنكار الخالق تعالى أو الإشراك به. وكذا فإنَّ القلوب تتلطخ وتتلوَّث بالأعمال الملوثة والخبيثة التي نقترفها بأعيننا، وآذاننا، وألسنتنا، وأيدينا. وحتى الأخيلة والأفكار الدنيئة من شأنها أن تتسبب بتعكير صفو القلب وتلوثه. وتُعد همسات النفس، ووساوس الشيطان بمثابة الفيروسات الخفية التي تسود القلب وتلوثه. وكذلك فإن ذهن الإنسان وقلبه يتأثران بالكتب التي يقرأها، وبالمؤتمرات والندوات ومجالس الصحبة التي

إن أخطر أنواع التلوث الذي يصيب القلوب هو إنكار الخالق تعالى أو الإشراك به. وكذا فإنَّ القلوب تتلطخ وتتلوَّث بالأعمال الملوثة والخبيثة التي نقترفها بأعيننا، وآذاننا، وألسنتنا، وأيدينا. وحتى الأخيلة والأفكار الدنيئة من شأنها أن تتسبب بتعكير صفو القلب وتلوثه. وتُعد همسات النفس، ووساوس الشيطان بمثابة الفيروسات الخفية التي تسود القلب وتلوثه. وكذلك فإن ذهن الإنسان وقلبه يتأثران بالكتب التي يقرأها، وبالمؤتمرات والندوات ومجالس الصحبة التي يحضرها ويستمع للكلمات التي تلقى فيها.

يحضرها ويستمع للكلمات التي تلقى فيها. وبناء على ذلك فإنَّ ماهية الكتاب الذي يقرأه الإنسان، ومحتوى كلمات المؤتمرات والمجالس التي يحضرها تتمتع بأهمية كبيرة. فالمزاريب مزدوجة؛ حيث يتدفق من أحد فوهتيه نور، ومن الأخرى وسخ وقذارة. ومن ثم فإن حفظ عالم القلب والذهن وحمايته من التلوث والأوساخ مسألة بغاية الصعوبة. ولتحقيق النجاح في هذه المهمة الصعبة لا بد من أن يقترن جهد العبد مع توفيق الرب سبحانه وتعالى. ولهذا يتوجب الالتجاء إلى عون الله تعالى ورعايته في حفظ القلب بالذات أكثر من غيره من الأعضاء. وهذه هي إحدى حكم إكثار النبي عليه الصلاة والسلام من دعاء:

"يا مقلبَ القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك".

حفظ اللقمة من التلوث. فينبغي أن لا ننسى أبداً أن اللقمة الحرام هي بمثابة سم قاتل لحياتنا المعنوية. وقد قيل: "إن أردت أن تشبه لقمان، فانتبه للقمتك". وفي أغلب الأحيان تكون النوايا الحسنة، والأعمال الصالحة نتاجاً للقمة الطيبة الطاهرة. وإن الأطعمة والأشربة الحرام، والأغذية المشتراة بنقود حلال ولكن مكتسبة بطرق ملتوية تُعد أغذية ملوثة ومسممة لأجسامنا. وقد لفت كل العارفين والأولياء الأنظار إلى ضرورة طهارة اللقمة وطيبها. ومن هؤلاء الشيخ عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – حيث يقول:

"انتبه يا بني! الطعام الحرام يُميت القلب. ثمة لقمة تنير قلبك وأخرى تُظلِمه؛ وثمة لقمة تشغلك بالدنيا وأخرى تشغلك بالآخرة؛ وثمة لقمة تجعلك زاهداً في الدنيا والآخرة وأخرى توجِّهك إلى خالق الدنيا والآخرة".

عدم تلويث المال. فكل من الأموال المكتسبة بطريقة غير مشروعة، والمغتصبة، والمسروقة، والتي لم تؤد زكاتها للفقراء هي أموال ملوثة ومتسخة. وهذه الأموال نقمة على صاحبها وليست نعمة. وأما الأموال المكتسبة بطريقة مشروعة، ومن قنوات نظيفة فهي من أفضل النعم بيد الإنسان. وإن من شأن طبيعة المال أي ما إذا كان حراماً أم حلالاً التأثير على صرفه وإنفاقه. فالأموال الملوثة تُصرف في غالب الأحيان في الأعمال المشبوهة والخبيثة، بينما تُنفق الأموال النظيفة والطاهرة على الأعمال والخدمات السامية. فينبغي المحافظة على طهارة المال، وتنظيفه وتنقيته من خلال الإنفاق والصدقات، والنهوض بأعمال الخير.

ويجب المحافظة على طهارة ونظافة العائلة، والشارع، والأسواق، والبلد، والأرض كلها. وباختصار ينبغي الإبقاء على هذا العالم طاهراً نقياً من الناحية المادية والمعنوية كما قُدم لنا. وكل أشكال الطهارة والنظافة المذكورة آنفاً مرتبطة بعدم تلوث الإنسان، وبقائه طاهراً نقياً. أو على الأقل مرتبطة بهيمنة النظافة والطهارة.

يمكن التطهر والمحافظة على الصفاء والنقاوة من خلال متابعة حياة متعلقة بربنا "السلام". ولا شك أن لكل خبث وتلوث نوعاً من النظافة تطهره وتزيله. ومن رحمته سبحانه وتعالى بعباده أنه شرع أمامهم أبواباً كثيرة في هذا المضمار. فالإيمان اليقيني بالله وبالآخرة باب من أبواب الطهارة؛ والتوبة والاستغفار، ودمع العين من خشية الله باب من أبواب طهارة؛ ومراعاة الحلال والحرام باب آخر؛ والوضوء والغسل والتيمم من أبواب طهارة؛ وإزالة الأذى عن الطريق باب منها؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبواب طهارة. وهناك المزيد والمزيد من أبواب الطهارة لمن شاء التطهر...

والخلاصة؛ لقد جئنا إلى هذا العالم طاهرين أنقياء، ومكلفين فيه بتكاليف عديدة سامية. ومن هذه التكاليف تقديم حياة نظيفة نقية، وخالية من الشوائب، والصعود إلى ربنا سبحانه وتعالى طاهرين. نسأل الله تعالى أن يكون خير معين لنا وإياكم!.

هاجس الآخرة

د. مراد كايا

ينبغي أن لا يغيب هاجس الآخرة عن قلب الإنسان أبداً. فإخراج حساب الآخرة من القلب، وصب التفكير والاهتمام على الحسابات الدنيوية وحدها يُعد مرضاً قلبياً خطيراً. ولا يفلح الإنسان دون معالجة هذا النوع من الأمراض القلبية ومداواتها.

لا يجمع الله تعالى في قلب العبد خوفين وأمنين. فالذين يتقلبون في المسرات الوهمية والخاطئة في الدنيا سيواجهون في الآخرة الخوف والأحزان الحقيقية. وأما المؤمنون الذين يحملون الهواجس والمخاوف الصحيحة في الدنيا فإنهم سوف يتقلبون في الآخرة في المسرات، والسعادة، والأمن الحقيقي.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا. وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا. إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (الانشقاق: ٧- ١٤)

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ. فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ. إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٦- ٢٨)

نُقلت لنا أمثلة وصور كثيرة عن الصحابة الكرام بشأن إبقاء هاجس الآخرة حياً بين جنباتهم في هذه الحياة وعدم الاكتراث بالدنيا. ومن جملة هذه الصور الجميلة ما نقل منها عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فدعونا نتأمل في هذه المقتطفات والصور ونقارن حالنا بها:

يقول أبو بكر العبسي:

دخلت مع عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب ﷺ مكان الصدقة، فجلس عثمان في الظل يكتب، وقام علي عند رأسه يمل عليه ما يقول عمر، وعمر في الشمس قائم في يوم حار شديد الحر، عليه بردان أسودان، متزرا بواحد، وقد لف على رأسه آخر، يعد إبل الصدقة، يكتب ألوانها وأسنانها.

فقال علي لعثمان وسمعته يقول: ألم تسمع نعتَ بنت شعيب في كتاب الله:

﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)

ثم أشار علي بيده إلى عمر، فقال:

هذا القوي الأمين!. (الطبري، التاريخ، ٤، ٢٠١؛ ابن عساكر، تاريخ دمش، ج ٤٤، ص، ٢٧٤- ٢٧٥؛ الدهلوي، إزالة الخفاء، ٢، ٥٥٨)

وهناك حادثة مشابهة لهذه يرويها مولى لعثمان بن عفان ﷺ، فيقول:

بينا أنا مع عثمان في مال له بالعالية في يوم صائف حار إذ رأى رجلاً يسوق بِكرَين من الإبل، وعلى الأرض مثل الفراش من الحر. فقال عثمان:

"ما على هذا لو قام بالمدينة حتى يبرد ثم يروح". ثم دنا الرجل منا، فقال عثمان: "انظر من هذا!". فنظرت فقلت: أرى رجلاً معمماً بردائه يسوق بِكرين. ثم دنا الرجل، فقال عثمان: "انظر!". فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقلت: هذا أمير المؤمنين!. فقام عثمان ﷺ، فأخرج رأسه من الباب فأذاه نفح السموم، فعاد رأسه حتى حاذاه، فقال: "ما أخرجك هذه الساعة؟". فقال عمر ﷺ: "بكران من إبل الصدقة تخلفا وقد مضي بإبل الصدقة، فأردت أن ألحقهما بالحمى. وخشيت أن يضيعا فيسألني الله عنهما". فقال عثمان: "هلم يا أمير المؤمنين إلى الماء والظل، ونكفيك". فقال عمر: "عد إلى ظلك!". فقلت: عندنا من يكفيك!. فقال:

"عد إلى ظلك"، ومضى. فقال عثمان ﷺ:

"من أحب أن ينظر إلى القوي الأمين فلينظر إلى هذا!". (الإمام الشافعي، المسند، ص، ٣٩٠؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٤٤، ص، ٢٧٤)

وروي أن عمر ﷺ قال ذات مرة عن رجل:

"إني لأبغض فلاناً". فقيل للرجل: ما شأن عمر ﷺ يبغضك؟. فلما أكثر القوم في الذكر جاء الرجل إلى عمر، فقال: يا عمر أفتقت في الإسلام فتقاً؟ قال عمر: لا. قال الرجل:فجنيت جناية؟ قال: لا. فقال: أ حد ثت حدثاً؟ قال: لا. فقال الرجل: فعلام تبغضني؟ وقد قال الله:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٨)

فقد آذيتني فلا غفرها الله لك.فقال عمر ﷺ:

- صدق والله! ما فتق فتقاً، ولا، ولا فاغفرها لي، فلم يزل به حتى غفرها له. (السيوطي، الدر المنثور، ٦، ٦٥٨)

يقول قتادة ﷺ وهو من كبار علماء التابعين في الآية المذكورة آنفاً:

"إياكم وأذى المؤمنين فإن الله يَحوطُهم، ويغضب لهم. وقد زعموا أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأها ذات يوم فأفزعه ذلك حتى ذهب إلى أبي بن كعب ﷺ فدخل عليه، فقال: يا أبا المنذر! إني قرأت آية من كتاب الله تعالى فوقعت مني كل موقع، والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات، والله إني لأعاقبهم وأضربهم!. فقال له أبي:

إنك لست منهم، إنما أنت معلم (تفعل لتأديب الناس وتربيتهم" (ابن أبي حاتم، التفسير، ١٠، ٣١٥٣)

ويروي إياس بن سلمة عن أبيه أنه قال:

مر عمر بن الخطاب ﷺ في السوق ومعه الدرة، فخفقني بها خفقة، فأصاب طرف ثوبي، فقال: "أمِطْ عن الطريق!." فلما كان في العام المقبل لقيني فقال:

يا سلمة، تريد الحج؟. فقلت: نعم، فأخذ بيدي، فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم، وقال:

استعن بها على حجك، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك!. قلت: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها!. فقال عمر:

وأنا ما نسيتها!. (الطبري، التاريخ، ٤، ٢٢٤)

وذات مرة قالت أم المؤمنين حفصة ﷺ لأبيها عمر ﷺ:

يا أمير المؤمنين ! ما عليك لو لبستَ ثوباً ألين من ثوبك هذا، وأكلت طعاماً أطيب من طعامك هذا! قد فتح الله عليك الأرض، وأوسع عليك الرزق؟ قال عمر ﷺ:

سأخاصمك إلى نفسك. أما تعلمين ما كان يلقى رسول الله ﷺ من شدة العيش؟. وجعل يذكرها شيئاً مما كان يلقى رسول الله ﷺ، وما كانت فيه من الجهد حتى أبكاها. ثم قال عمر:

قد قلت لك: إنه كان لي صاحبان ـ يعني بصاحبيه النبي ﷺ، وأبا بكر ﷺ ـ سلكا طريقاً، فإني إن سلكت غير طريقهما سُلك بي غير طريقهما، فإني والله لأشاركنّهما في مثل عيشهما الشديد، لعلي أدرك معهما عيشهما الرخي!. (ابن أبي شيبة، المصنف، ٧، ٧٩/ ٣٤٣٣٤؛ النسائي، السنن الكبرى، ١٠، ٣٨٩/ ١١٨٠٦)

"لولا أنكم تُذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم".
(مسلم، التوبة، ٩؛ الترمذي، الدعوات، ٩٨)

التطهر

د. إسماعيل لطفي جاكان

إن عدم التلوث والحفاظ على الطهارة أمر مثالي لا شك. ولكن ما مدى إمكانيته. وكيف يمكن تحقيق هذه المثالية في هذه الدنيا التي هي موطن الذنوب والخطايا؟

يمكن طرح أسئلة كثيرة في هذه الناحية. ولكن المهم هو: ما هو الجواب؟

روي عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ. سمعت رسول الله ﷺ، يقول:

"لولا أنكم تُذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم" (مسلم، التوبة، ٩؛ الترمذي، الدعوات، ٩٨)

الطبيعة البشرية

يأتي الإنسان إلى الدنيا خالياً من المعاصي، إلا أنه لا يستطيع العيش فيها دون ذنوب وخطايا كما جاء إليها أول مرة. لأن الإنسان خطاء، والعبد لا يخلو من العيوب والنقص. ولكن الأمر المهم هو أن لا يغادر الإنسان هذه الدنيا ويذهب إلى العالم الآخر مع ذنوبه ومعاصيه.

فما الذي سوف يفعله الإنسان وهو لا يمكنه الانتقال إلى الآخرة دون ذنوب؟

وما هو الأمر الحقيقي والمهم؟

فهل هو عدم ارتكاب الذنوب أي عدم التلوث، أم محاولة تصحيح الخطأ والوصول إلى مغفرة الذنب، أي التطهر؟

إننا نجد في الحديث المذكور آنفاً إجابة واضحة وصريحة على هذه الأسئلة وأشباهها. فليست المنقبة مغادرة الدنيا دون اقتراف الذنوب، وإنما المنقبة هي تصحيح الأخطاء، وتلافي آثار المعاصي.

إن المخلوق الوحيد الذي يمتلك القدرة على تصحيح الخطأ الذي ارتكبه هو الإنسان. فالإنسان

الذي بإمكانه تصويب الأخطاء التي يرتكبها في حياته اليومية والدنيوية مكلف أيضاً بتصحيح الأخطاء التي يرتكبها في الحياة المعنوية.

ومن جهة أخرى فإن الله تعالى رحيمٌ رحمةً لا حدود لها. ورحمته وسعت كل شيءٍ، ومتقدمة على غضبه. وهو يحب العفو، وعفوه يتجلى في العصاة والمذنبين.

إنَّ هذا الحديث يلفت الأنظار إلى هذه الحقائق ذات الجانبين الإنساني والإلهي، ويُدعى الناس على شكل بشارة إلى منقبة تصويب أخطائهم وبذل الجهد المطلوب لأجل ذلك.

لا يمكن قطعاً أن يستنتج من الحديث المذكور على أنه يتضمن تحريضاً أو تشجيعاً على الذنوب واقترافها، أي إلى التلوث والتلطخ. (ابن ملك، مبارق الأزهار، ٥٩/١١). وإنما يحض الحديث المذنبين والذين تلوثت وتلطخت أيديهم بالمعاصي إلى طلب رحمة الله تعالى، والتوبة من ذنوبهم، ورجاء العفو والمغفرة، وعدم الوقوع في حالة اليأس والقنوط نتيجة تراكم الخطايا.

إن تردد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه في رواية الحديث وتأخرَه حتى أواخر أيام حياته إنما يعود إلى عظمة عنصر البشارة الذي يتضمنه الحديث، ومن ثم خشيته من جنوح الناس إذا ما سمعوا هذه البشارة إلى الاتكال عليها، والانكباب على الدنيا؛ وأما روايته له في النهاية وإخبار الناس به فيعود إلى رغبته بالتخلص من العاقبة الوخيمة لكتمان أمر أو معلومة علم بها من النبي ﷺ، وعدم تبليغها.

إن ديننا الحنيف يدرك الحقيقة في كل مسألة، وبعد القبول بها وإقرارها كما هي يطرح الحل. ومن جملة هذه المسائل مسامحة الإنسان لخطأه، إذ لا يحق في الإسلام الذي هو دين السماحة بالأصل أن يوصد أبوابه أمام هفوة الإنسان وخطئه، لكن لا يحق للإنسان وخاصة المسلم أن يسامح نفسه على أخطائه، بل عليه أن يرجع إلى الصواب ويعتذر عن تقصيره. وقد ذكرت هذه الحقيقة في القرآن الكريم بقول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ (آل عمران: ١٣٥)

لا يحق للإنسان وخاصة المسلم أن يسامح نفسه على أخطائه، بل عليه أن يرجع إلى الصواب ويعتذر عن تقصيره. وقد ذكرت هذه الحقيقة في القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا...﴾

ويشير النبي عليه الصلاة والسلام في حديث آخر إلى أنه ما ينبغي للمسلم أن يستهين بخطئه أو يظهر التسامح مع نفسه بشأنه، حيث يقول: **"أتبع السيئة الحسنة تمحها"** (الترمذي، البر ٥٥)

لما نزل الوحي لأول مرةٍ على النبي ﷺ رجع إلى البيت متوتراً مضطرباً. وبعد أن استراح في فراشه مدة نهض وأخبر زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها بما جرى معه. وعبَّر عن قلقه من الحالة التي أصابته بقوله: لقد خشيت على نفسي!. وكانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها إلى جانب غناها ووعيها ذاتَ ثقافة عالية. فأخذت تواسي زوجها وحبيبها، وتهدئ من روعه بتذكيره بماضيه الطاهر والنظيف، وقالت له:

"كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك: لتصل الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ،وتُكسِب المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" (البخاري، بدء الوحي، ٣؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢)

لقد جعلت أم المؤمنين رضي الله عنها بكلماتها هذه الماضي الطاهر للنبي عليه الصلاة والسلام دليلاً على مستقبله المشرق. وإن كلماتها هذه في الوقت ذاته ملاحظة تاريخية هامَّة حول ماضي النبي عليه الصلاة والسلام تستحق التوقف عندها والتأمُّل. وكأنها تريد القول: إن نظافة ونقاء ماضي الإنسان عامل مهمٌّ للغاية في قيامه بالخدمات، وتلقي النعم، والنجاح في الحياة؛ وبالمقابل فإن الماضي الملوث يُعد دائماً أكبر مصدر للخطر للجميع. إنها كانت تقرر واقعة أو حقيقة تاريخية، ألا وهي: "المستقبل المشرق والسعيد يحتاج إلى ماضٍ ناصع ونظيف"؛ وتعلن أن النبي عليه الصلاة والسلام هو النموذج الفريد والوحيد من هذه الناحية.

فرصة التطهر

يُذكر في الحديث النبوي أنَّ الإيمان، والهجرة، والتوبة طرق مختلفة ومستقلة لتطهير الماضي. وتُعد التوبة بالنسبة للمسلم طريقة تطهير سارية الصلاحية حتى لحظة الوفاة. فالقضية هي أن يتوقف الإنسان على أخطائه، ولا يغض الطرف عنها من خلال مواساة نفسه بالنظر إلى أخطاء الآخرين الكثيرة. إذ إن الانشغال بأخطاء الآخرين يدفع الإنسان إلى إهمال تطهير نفسه، وهذا هو الضلال بكل ما للكلمة من معنى.

فمِن واجب المسلم أن ينظر إلى أي خطأ يرتكبه على أنه خطأ كبير مهما كان بسيطاً، ومن ثم يبذل غاية جهده ودون أدنى إهمال أو تلكؤ لإزالة آثاره من قلبه، ومن صحيفة أعماله. لأن الأخطاء الصغيرة تصبح كبيرة بالإهمال، والأخطاء الكبيرة تصغر بالتوبة والاستغفار، حتى أنها تُمحا وتزول. فينبغي أن يعلم الإنسان جيداً أن رحمة الخالق الذي يعفو ويغفر الذنوب جميعاً وسعت كل شيءٍ، ومن ثم عليه أن يتعامل مع ذنوبه وأخطائه من هذا المنطلق.

إن الدعاء هو ابتهالُ وتوجه المحتاج لكل شيء إلى الغني عن كل شيءٍ وعرض حاله عليه بلسانه وأفعاله.

وما ينبغي أن يُنظر إلى الدعاء على أنه استيداع شيءٍ ما لدى أحد ما فحسب. فالله تعالى يرُدُّ علينا بإجابات عميقة ذات أبعاد وجوانب عديدة ومتنوعة، ولا يردُّ علينا حسب أفقنا الضيق وتفكيرنا الضحل. والأمر الأساسي في الدعاء هو إدراك ضعفنا وعجزنا، ومراعاة آداب السؤال أثناء عرض الحال والتضرع، ولكن مع الاعتقاد الجازم بحصول الاستجابة. وإن انتظار الإنسان نيل كل ما طلبه من أشياء وأمور بحذافيرها قد يخالف ويناقض مسألة علم الله بكل شيءٍ، وفعله لما يريد ويشاء. لأن قدر الإنسان سوف يتحقق بإذن الله تعالى بشكل مرتبط بأفعال الإنسان وإخلاصه لا حسب رغباته وطلباته. فمجرد تحريك اللسان بالرغبات والأمنيات من غير عملٍ، وانتظار النتائج دون الأخذ بالأسباب لا يتوافق ولا ينسجم مع روح الدعاء، ومع ذلك فإن الله ﷻ إذا أراد أن يخلق شيئاً من دون سبب فلا يقدر أحد على منعه.

والدعاء إلى جانب قرعنا للباب الذي سوف يلبي سؤالنا وطلبنا هو أن ندرك عظمة صاحب ذاك

الدعاء

الأستاذ: آدم جليك كايا

الباب ويقيننا أنه عالم بكل شيء وقادر على فعل كل شيء. وهو إقرارٌ برحمة الله ورأفته التي لا حدود لها ولا غاية وطلب كل شيء منه وتوقع استجابته. فليس بالإمكان إخفاء ما يدور في أذهاننا وعقولنا عنه، فهو جل جلاله يعلم كل شيء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إلا أن الواجب المترتب على عاتقنا هو إدراك عجزنا، والتزام أعتاب بابه مهما كانت ذنوبنا وخطايانا كثيرة. فعلينا أن نقرع هذا الباب دون كلل أو ملل بكل صدق وإخلاصٍ مع الثقة التامة والاعتقاد الجازم بفتحه ذات يوم وحصول الاستجابة.

الدعاء مخُّ العبادة ولبُّها. وفي الدعاء نخاطب ربنا عزَّ وجلَّ مباشرة دون واسطةٍ. لقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام وأجدادنا وخلفاؤنا وسلاطيننا السابقون يستشيرون من حولهم في كل أعمالهم وشؤونهم من أصغرها إلى أكبرها، ثم كانوا بعد العزم والأخذ بالأسباب يتوجهون إلى ذلك الباب ويتذللون على أعتابه بالتضرع والابتهال، ويستودعون الله تعالى كل أمورهم. كانوا كلما دعوا تقربوا منه سبحانه وتعالى، وكلما تقربوا منه تمسكوا بالدعاء أكثر. لأنهم كانوا مدركين حق الإدراك وموقنين حق اليقين أنه لن يحدث شيء إذا لم يقل الله تعالى له "كن".

ويجب علينا نحن باعتبارنا مسلمين نحاول السير على طريق ومنهج رسول الله عليه الصلاة والسلام وإن كان سيرنا بتعثر وبطء، ونقر ونعتبر ذلك أعظم درجة وفخر لنا، يجب علينا أن نواصل ليلنا بنهارنا، ونؤدي وظائفنا وواجباتنا وخدماتنا حق تأديتها، ونقف على باب الله تعالى بخشوع وخضوعٍ، ونناديه بتذلل "يا رب، يا رب، يا رب"- نتجاذبٍ مشاعر الرجاء والخوف- ولا نفارق ذلك الباب أبداً. وعلينا أثناء الدعاء أن لا نكتفي بعرض سؤالنا وطلباتنا فحسب، وإنما ينبغي أن نعرض على ربنا عز وجل حال أهلنا، وجيراننا، وأصحابنا، وأهل بلدنا وحال أمة محمد عليه الصلاة والسلام كافة، ونسأل المولى عز وجل أن يوحد صفوفنا، ويرزقنا الصحة والسلامة، والرشد والوعي. وعلينا عند الدعاء وعرض مسألتنا على ربنا سبحانه وتعالى أن نراعي الصدق والإخلاص في القلب لا البلاغة في القول والخطاب.

اللهم يا مالك الملك، يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين نسألك أن تجلوَ همومنا، وتجمع شملنا، وتوحد صفوفنا، وتغفر ذنوبنا، وتطهر قلوبنا، وتبعدنا عن سبيل الظلمات، وتعزنا في الدنيا والآخرة... آمين.

جوهر العبادات الخفي

رابعة برودبيك

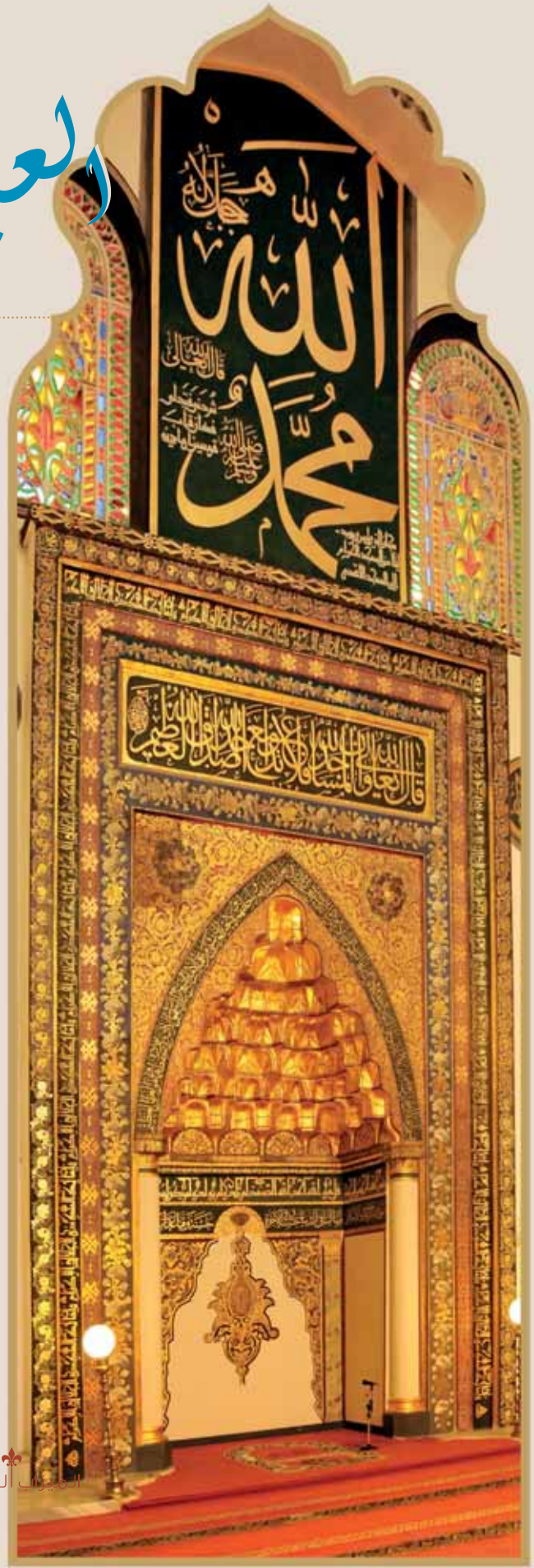

إن سنة النبي ﷺ هي أعظم قوة ديناميكية في الكون كله. فالقرآن الكريم عندما يلتقي مع الحديث والسنة ويتوحد معها يظهر أعظم نور للهداية والإرشاد. وهذا يعني ضرورة استناد كافة تصرفات المؤمنين، وسلوكهم، وأفعالهم، وطاعاتهم، وأقوالهم إلى القرآن والسنة. وهذه الحال هي ثمرة وبركة سير الطريقة المحمدية بجمالها وكمالها الإلهي على الصراط المستقيم. فمع مجيء خاتم الأنبياء محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم انتصر الدين الحق، وتميز الحق عن الباطل، وتأسس طريق الصراط المستقيم. وهذا كنزٌ لأمة محمدٍ، ودعوة من الله إلى الجهاد والكفاح على طريق الحق.

إنَّ الصراط المستقيم هو طريق يتمنى المسلم لو أنَّه يصبح غباره، وخادمه وفداءه. هذا الطريق هو غبار قدم النبي المبعوث رحمة للعالمين كافَّةً والطريق الذي ينبغي أن يُتبع. هذا الطريق فوق الإنسان. هذا الطريق طريق الإنسانية لأجل البشرية. هذا الطريق طريق الجهاد. هذا الطريق طريق الهجرة. هذا الطريق طريق سعادة التضحية بالنفس. هذا الطريق طريق تضرعنا إلى خالقنا قائلين: "إياك نعبد وإياك نستعين". هذا الطريق طريق الذكر، والدعاء، والعبادة. هذا الطريق طريق الخضوع، طريق

التسليم، طريق العشق والنور الأبدي، طريق التضرع والابتهال. هذا الطريق طريق الجمال والكمال، طريق اللانهائية، طريق الديمومة. هذا الطريق طريق الرفاه الأبدي، طريق الكرم والمروءة، طريق الإحسان واللطف والفضيلة. هذا الطريق طريق تصفية وتنقية القلب والروح. هذا الطريق طريق التضحية. إنه طريق الرسول الأكرم الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة. إنه الصراط المستقيم. والصراط المستقيم يمثل الأخلاق المحمدية. هذا الطريق طريق النور؛ نور صفات الله تعالى وأسمائه اللامتناهية، نور الإيمان. إنه نور الصراط المستقيم الذي هو طريق تحصيل الشرف والعزة. وهذا النور متاح لكل فرد يسلك ويجاهد على طريق الحقيقة. نور يتسلل من عالم الفناء والمحو والتخلي عن الذات؛ إنه نور الهداية الإلهية. يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥)

إن هذا الطريق دعوة إلهية للمعراج، للأنس، للاقتراب من الجنة. هذا الطريق جوهر العبادات الخفي. هذا الطريق لا نهاية له. فلا نهاية للمحبة والجمال، ولا لرحمة ورأفة وشفقة ربنا سبحانه وتعالى. ولا يُعد أي شيء ينقل أو يقدم لنا في رحلتنا المعنوية درساً تاريخياً جافاً أو معلومة مجردة، وإنما المشهد الذي تشكله المعلومات حي بكليته. إذ يمكننا أن نتتبع أثر تقليد التنوير الروحي ذاك والذي يستمر على شكل سلسلة مترابطة الحلقات.

إن ولادة ابن آدم في هذه الدنيا هي دعوة له إلى الصراط المستقيم. ويولد جميع الناس أول ما يولدون مسلمين ومن أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

وإن الناس في العالم الغربي محرومون من هوية العقيدة الحقة، لذا فإنهم يولدون وهم لا يعلمون شيئاً عن طريق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. وكذلك فإن كثيراً من الناس ممن يولدون كمسلمين لا يكتسون بكسوة الإسلام، وبذلك فإنهم لا يستطيعون إدراك الصراط المستقيم. وإن عدم الوعي بالصراط المستقيم ليس سوى انحراف عن طريق الصواب والحق نحو الضلال. وبذلك فإنهم يتيهون في ظلمات اللاوعي. فيجب أن يستيقظ الناس وخاصَّةً المسلمون من نوم الغفلة وينتبهوا إلى الوعي السامي بالصراط المستقيم. وإن هذا الوعي هو إدراك الأخلاق المحمدية. وفي هذا السياق يتحدث مولانا جلال الدين الرومي في بعض أبياته التي وهو يحدثنا عن مفهوم التضرع والتوسل إلى الله تعالى، الذي يقوم به أهل النار حيث لا تكون الغاية منه طلب الوقاية من نار جهنم ودخول الجنة، وإنما لأجل الإعادة إلى الدنيا للتلذذ بالمعرفة والعبادة، حيث يقول:

"إن سعادة أهل النار وهم في جهنم أكبر من سعادتهم عندما كانوا في الدنيا، لأنهم في النار يعرفون الله تعالى بينما لم يكونوا يمتلكون هذا الوعي وهم في الدنيا. فليس من شيءٍ أعذب وأحلى من إدراك الله تعالى. وأما طلب العودة إلى الدنيا فمن أجل إدراك الأشياء التي هي تجليات لجمال الله تعالى وألطافه".

وبهذه الحكمة العظيمة يبين الله تعالى للإنسانية كيف أن كل شيء يتغير عندما يدخل الإدراك الإلهي إلى قلب الإنسان.

إن الله تعالى يدعونا إلى الجهاد والكفاح على طريق الحقِّ في كل زمانٍ ومكان. ويدعونا الله تعالى إلى مشاهدة الجمال

إن سعادة أهل النار وهم في جهنم أكبر من سعادتهم عندما كانوا في الدنيا، لأنهم في النار يعرفون الله تعالى بينما لم يكونوا يمتلكون هذا الوعي وهم في الدنيا. فليس من شيءٍ أعذب وأحلى من إدراك الله تعالى. وأما طلب العودة إلى الدنيا فمن أجل إدراك الأشياء التي هي تجليات لجمال الله تعالى وألطافه".

الأبدي لكنوز الخلق. يدعونا إلى الإعجاب، إلى العشق، إلى الإلهام الإلهي. وإن دعوته، ونداءه، وتحذيره يمثل الاستيقاظ من الغفلة على نور الوعي الإلهي، أي الهداية الحقيقية. فيجب علينا جميعاً الاستيقاظ من نوم الغفلة، وبذل غاية الجهد للدخول في المعراج الحقيقي. علينا أن نجدد إيماننا، وننفض عنه الغبار. علينا أن نعيد إحياء محبته الكامنة في قلوبنا. وباختصار؛ علينا أن نتخلص من كل محبة لا تكون في الله. فأعْراضُ العمى المعنوي، والغفلة، والجهالة لا تظهر إلا لدى المحرومين من المحبة الإلهية؛ لأنَّ الإنسان المتيقظ معنوياً، والواعي وصاحب الإدراك الحي يُحصِّل هذه الأحوال بنسبة اكتشافه لخزائن العشق الموجودة في ذاته. ولهذا فإن عيشَ الإنسان حياة الغفلة الدنيوية لا يعني نقص علومه ومعرفته؛ وإنما يعني نقص عاطفته، وأحاسيسه الإلهية، ونقص شعوره بالحاجة إلى الأمور الإلهية. يرى مولانا جلال الدين أن هذه الدنيا إنكارٌ ورفض للحقيقة الإلهية، فيقول: "اعلم أن سبب إقبالنا على الدنيا بهذا القدر إنما هو غفلتنا عن الحضرة الإلهية؛ وليس سببه المال، ولا النساء، ولا الثياب!". فعندما يتيه الإنسان ويضيع في هذه الدنيا وفي جاذبيتها فإنه يبتعد عن الله تعالى، ويصبح عبداً لأهوائه وشهواته، ولعبة بين يدي الشيطان. ولهذا فإن مولانا جلال الدين يدعو الناس إلى الخروج من زنزانة الوجود. ويروى أن النبي ﷺ قال: "من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث: همّ لا يفارق قلبه أبداً، وفقر لا يستغني معه أبداً، وحرص لا يشبع معه أبداً". وسئل رسول الله عليه الصلاة والسلام: ما الدنيا؟ فقال: كل ما دفعك إلى الغفلة، وأنساك ربك". إن حب هذه الدنيا يعبر عن الأنانية، والكبر، والشرك، والجهالة والضلالة. إن حب هذه الدنيا يعني: انتفاء العشق تجاه رب العالمين، وانتفاء الدين، وانتفاء الصيام، وانتفاء الدعاء، وانتفاء الحج، وانتفاء المعراج، وانتفاء الإحرام، وانتفاء الجهاد، وانتفاء الصراط المستقيم، وانتفاء السجود. إن حب الدنيا انتفاء لسنة النبي ﷺ، ونقصان في الجمال، والعشق، والنور. وبعبارة أخرى؛ إن الإنسان الذي يعيش بدون وعي وإدراك قد نسي وجهته الأصلية، وضل عن الطريق المستقيم، وانحرف عن الحقيقة نحو الباطل، وباختصار أضاع نفسه.

إن الحقيقة لا تُعطى بلا ثمن! فيجب على المؤمنين السعي الحثيث خلف الحقيقة في كل زمان ومكان. يجب أن نترك كل شيء في هذه الدنيا ونهرب منها ونفر. حيث جاء في القرآن الكريم: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾

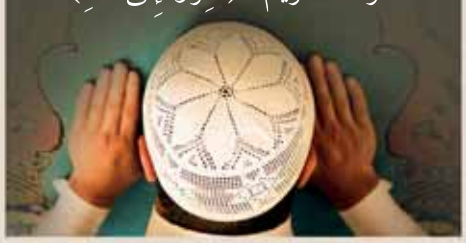

ألا نكون على الصراط المستقيم إذا ما أدركنا أن حياتنا ما هي إلا رحلة معنوية؟ ألا نكون على الصراط المستقيم، إذا ما ضحينا بأنفسنا في سبيل الله في سوق الآخرة؟ ألا نكون على الصراط المستقيم إذا ما تخلصنا من الشرك؟ ألا نكون على الصراط المستقيم إذا ما خدمنا دين التوحيد؟ ألا نكون على الصراط المستقيم إذا ما حملنا الأمانات المقدسة، وجعلنا حياتنا تمهيداً للآخرة؟

إن الله تعالى سوف يحيينا حياةً حقيقة، ويجعلنا مؤمنين حقيقيين بقدر سيرنا خلف الحقيقة على الصراط المستقيم، وبقدر توجهنا إلى الوطن الأصلي، وبقدر ارتدائنا لباس الإحرام، وبقدر سجودنا على الصراط المستقيم، وبقدر دخولنا في المحبة الإلهية، وبقدر تذللنا وتضرعنا، وتعبدنا، وخضوعنا أمام الله تعالى. وإننا نصبح بشراً، وخلفاء، وعباداً ومؤمنين حقيقيين بقدر المشقة والمصاعب التي نتحملها في سيرنا على الصراط المستقيم، وبقدر كفاحنا وجهادنا، وبقدر تعرضنا للابتلاء والامتحان.

إن الحقيقة لا تُعطى بلا ثمن! فيجب على المؤمنين السعي الحثيث خلف الحقيقة في كل زمان ومكان. يجب أن نترك كل شيء في هذه الدنيا ونهرب منها ونفر. حيث جاء في القرآن الكريم:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾

يجب على المؤمنين بعقيدة التوحيد أن يقتفوا آثار الأنبياء والمرسلين من لدن سيدنا إبراهيم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، وأن يضعوا خطواتهم موضع خطوات رسول الله ﷺ. ويجب في الوقت ذاته أن يعلم المؤمنون أنهم باحثون إبراهيميون، وأن لا يغيب عن وعيهم وإدراكهم وأذهانهم كطلاب محمديين حقيقة أن الناس جميعاً إنما هم أبناء آدم عليه السلام. فالمحمديون يحملون على أكتافهم ميراث كل الأنبياء والرسل، والذي هو ميراث العبودية. وهم خلفاء الله في الأرض. فعلينا أن ننهض بهذا الدور. علينا أن نمسك بالأيدي التي تمتد حتى نبينا ﷺ، حيث قيل: "يداً بيد إلى الحق".

إذا كنا نؤمن بالتوحيد فإننا مدينون لله تعالى بدين الجهاد في سبيل الحق. مدينون بدين السير على خطى الذين استشهدوا في سبيل الحق. مدينون لبلال الحبشي الذي لم يتنازل، ولم يتوقف عن قول "أحد أحد" وهو تحت يرزح تحت التعذيب أياماً وليالٍ طويلة. مدينون بدين عدم الخوف من الموت في سبيل الله، وبالقيام بواجبات العبودية، والسير على طريق الحقيقة. مدينون بدين التحلي بخصال التقوى والصدق والإخلاص. مدينون بدين إعلان الصداقة والصحبة لهابيل لأجل الدم الذي سال منه، والعشق الذي قدمه لنا. إن شهداء الإسلام الذين أضاؤوا ما حولهم بنورهم يخرجوننا من ظلمات الغفلة. وقد ضحوا بأنفسهم من أجل أن نبصر نحن، من أجل أن نستيقظ، من أجل أن ندرك ونفهم، ومن أجل أن نرى نور الهداية من القرآن الكريم. فلنضع أنفسنا مكانهم، ولنقاتل حيثما قاتلوا، ولندعو حيثما دعوا، ولنسر من حيث ساروا، ولنبكي كما بكوا، ولنتضرع ونلتجئ إلى الله رب العالمين كما تضرعوا.

الوقف

الوقف مؤسسة تضمن استمرارية الإنفاق وهو مظهر للحب والشفقة والرحمة من الخالق إلى المخلوقات. ويعبر بهذا: إنفاق المال في سبيل الله ﷻ واستخدامه من أجل غاية معنوية أبدية تمنع التمليك والتملك. وقد بدأ الوقف في التاريخ في الأماكن التي يتعبد فيها الناس، ثم توسع بعد ذلك ليدخل فيه العديد من الساحات الاجتماعية الأخرى.

وتذكر الرواية أن «إبراهيم عليه السلام» كان قد خشع أمام جبريل عليه السلام لما ذكر لفظ الجلالة أمامه ثلاث مرات متتالية، فقام «إبراهيم عليه السلام» بوهب جميع قطعانه لله، فباعها كلها، واشترى أرضًا فسيحة قدمها لخدمة المسلمين، وبذلك يكون الوقف قد بدأ بـ«إبراهيم عليه السلام».

وقد عرض النبي ﷺ في حياته النماذج الفعلية للوقف، فكما هو معلوم أن النبي ﷺ كان أسوة حسنة لكل أمته في كل الساحات. وقد أوقف النبي ﷺ سبع حدائق نخيل في المدينة المنورة، وأوقف بعدها حصته من مزارع نخيل «خيبر» و«فَـــدَكْ». وقد تبعه في ذلك الصحابة الكرام رضوان الله عليهم؛ حيث أوقفوا أموالهم وأملاكهم بما لديهم من إمكانات. يقول «جابر» رضي الله عنه: "ليس من أصحاب النبي أحد إلا و أوقف".

وهذا عمر رضي الله عنه وقع في نصيبه من غنائم «خيبر» حديقة نخيل جميلة للغاية، لكنه رأى في منامه أنه ينفقها في ثلاثة أيام، فذهب إلى الرسول ﷺ وقال له: "أصبت أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس منه، فكيف تأمرني به؟".

فقال له الرسول ﷺ : «**إِنْ شِئْتَ حَبَّسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا**» . ولهذا أوقف «عمر» هذه الحديقة التي يمتلكها على المجاهدين في سبيل الله، وعلى العبيد الذين يريدون العتق من الأسر، وعلى أبناء السبيل، وكل أصحاب الحاجة. (البخاري، الوصايا، ٢٢/ ٢٧٧٢)

يوميات
القرآن الكريم

جعفر دورموش

انتبه لقلبك في الصلاة

الصلاة هي ذكرى معراج النبي المباركة، وعلامة الإسلام الفارقة، وهي من أهم العبادات التي كلفنا بها وأكثرها ديمومة واستمرارية. ورغم أنها تُخفف في أحوال معينة ومؤقتة مثل السفر، والمرض إلا أنها لا تسقط، ولا يُعفى منها المسلم أبداً. إن شمولية الصلاة تُنظم وترتب حياة المؤمن ابتداء من لحظة بلوغه وحتى أنفاسه الأخيرة. وقد ورد الأمر بالصلاة بقوله تعالى: ﴿**أقيموا الصلاة**﴾ في آيات كثيرة من القرآن الكريمة، تارةً تفرد الأمر بالصلاة، وتارة تقرنها مع الأمر بالزكاة. وتحددت أوقات الصلاة الخمسة بناء على الآية القرآنية:

﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**﴾ (النساء: ١٠٣)

وذكر في سورة المؤمنون أن الخشوع في الصلاة والمثابرة عليها أحد شروط أو عوامل الفلاح والخلاص الأبدي.

نريد أن نلفت الأنظار هنا إلى أمرين اثنين بشأن هذه الآيات القرآنية:

الأول: رغم أن القرآن الكريم بين فرضية الصلاة، إلا أنه لم يبين كيفية أدائها. الثاني: اشترط القرآن الخشوع والاستمرارية لكي تصبح الصلاة وسيلة للفلاح والخلاص. أجل لم يتم التطرق في القرآن الكريم إلى تفاصيل الصلاة. إذ ذن كل ما يجب أن نعلمه من التفاصيل والأحكام المتعلقة بالصلاة وبكيفية أدائها جماعة أو بشكل مفرد بينها النبي عليه الصلاة والسلام بالأفعال والأقوال. وتم تدوين كل ذلك في الكتب والمصنفات على يد الأجيال اللاحقة...

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"**صلوا كما رأيتموني أصلي**" (البخاري، ١، ٣٧٩)

وبين كيفية القيام، والقراءة، والركوع، والسجود، والقعود. وأخبرنا بأوقات الصلوات المفروضة. وحثنا على جملة من الصلاة النافلة والاهتمام بها مثل: صلاة الضحى، والأوابين، والتهجد. وبين لنا بلسان حاله ومقاله أن كل شيء في الحياة إنما يتوج بالصلاة وكان قدوة ومثلاً لنا في ذلك.

وبشرنا بشأن أثر الصلاة وفائدتها فقال:

"**مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جارٍ غَمْرٍ على باب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات**" (مسلم، المساجد، ٢٨٤)

وحثنا على الصلاة مع الجماعة فقال:

"صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ – أي المنفرد – بسبع وعشرين درجة" (البخاري، الأذان، ٣٠)

ونبَّه النبي ﷺ على مراعاة قواعد آداب المساجد من نظافة وتعظيم؛ ونهى عن إتيان أفعال وتصرفات معينة فيها مثل: النداء عن شاة ضالة، أو شيءٍ مفقود، أو البيع والشراء في المساجد. وأما اهتمامه بأركان في الصلاة فقد أمر شخصاً أن يعيد صلاته عدة مرات لأنه لم يأت بالأركان تامَّةً ولم يراعِ آدابها، حيث كان يقول له في كل مرة: **"ارجع فصل فإنك لم تصل"**.

ثم قال له في المرة الثالثة بهدف تعليمه كيفية الصلاة:

"إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها". (مسلم، الصلاة، ٤٥)

يمكننا القول: إننا مع كل قراءة جديدة لأحاديث النبي ﷺ، وتوجيهاته وتعاليمه الواردة في هذا المجال سوف نزداد إدراكاً لضرورة الخشوع في الصلاة والاستمرار عليها وإتمامها مع أركانه وأهميتها. وإننا سوف نبذل المزيد من الجهد لتجديد حماسنا وشوقنا إلى إقامة الصلاة التي هي علامة إسلامنا الفارقة. وسوف نحرص على أن تسري الطمأنينة القلبية على كافة أعضائنا بتناغم وانسجام تام حتى نؤدي صلواتنا بكامل أركانها. ولسوف نبذل غاية جهدنا حين التوجه بأبداننا نحو القبلة لربط القلب بمالكه، وللتفاعل مع كلام الله تعالى ما تتضمنه الصلاة من تسبيحٍ وذكرٍ، ودفع ما يرد في الذهن والصدر من خواطر ووساوس قدر المستطاع. وسوف نبدي عناية خاصة بمحاسبة أنفسنا بشأن الصلاة، وننقل هذا الشعور إلى أقربائنا ومن هم تحت إشرافنا ومسؤوليتنا. ولسوف نقوم ببحث وتفتيش دائم لإتمام الصلاة التي ستكون معراجنا. وسوف نحاذر من أداء الصلاة كوظيفة مترتبة في أعناقنا. فنحن بحاجة دائمة إلى تكرار تلك الأحاديث والتوجيهات بمختلف الوسائل...

ونعتقد أنه من المفيد هنا أن نصغي إلى توجيهات الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، حيث يقول:

"فانظر إلى نفسك؛ فليس الخبر كالعيان. وتأمل أن منتهى ذكرك، وعبادتك الصلاة. فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق، وحساب العالمين، وجواب المعاندين، وكيف يمر بك في أودية الدنيا ومهالكها، حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك. ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت. فالصلاة محك القلوب؛ فبها يظهر محاسنها ومساويها، فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا. فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر. فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضي الله عنه".

ونلخص الموضوع بعبارة لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حيث يقول:

"ركعتان مقتصدتان خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ".

من خصائص الإسلام الرئيسية

المساواة

(٤)

«إنما المؤمنون إخوة»

الدكتور: مُراد كَيا

عدَّ الإسلام جميع الناس مخاطَبين بالوحي، فهم أجمعون أفرادٌ في عائلة البشرية التي تؤطّرهم بغض النظر عن الفوارق العِرقية والدينية والجنسية والطائفية بينهم ويعرِّفهم بأنهم ينتمون لأب واحد وأمٍّ واحدة ويلقّنهم أنَّ بعض الفوارق الموجودة بينهم إنما هي وسيلة للتعامل الإيجابي المشترك لا للعداوة فيما بينهم وإن انحدار الناس من أعراق مختلفة وتكوينَهم لمجتمعات متنوعة ما هو إلا اختبارٌ لهم في النِّعم المُعطاة لهم وسبيلٌ لتسابق الناس في الغايات والأهداف المشتركة والاتفاق على الخير[١].

ثم إن الأفضلية بين الناس في الإسلام لا تُقاس بأمور متعلقة بالقدَر موجودة إلزاماً وخارجة عن الاختيار كالعِرق واللَّون والمِلّة بل بماحصّله من درجة القرب إلى الله تعالى والتقوى منه. وكذا فإن أشياء كالغنى والجمال والقوة وبلوغ مكانة شريفة أو الوصول إلى مرتبة عالية لا تعَدُّ وسائل للأفضلية. بل لا بدّ مِن معرفة أنها مِن نِعم الله تعالى ينبغي تأدية شكرها بأحسن ما يمكن، وشكر النعم يتحقق بجنسها، إنّ النّعم التي يتفضّل الله بها على عباده في الدنيا كالأسئلة المُعطاة للطلبة أثناء الامتحان فلا يفتخر الطالب أبداً بالأسئلة المعطاة له وإنما يسعد بالدرجات التي اكتسبها مقابل أجوبته، ولذا وبما أن أجر توظيف النعم التي تفضّل الله بها على المؤمنين لابتلاءهم فيما ترضي الله تعالى سيكون في الآخرة فما من سببٍ لافتخار المسلم بنفسه وجعلها تسمو على الغير في هذه الدنيا، بل إنّ مثل هذا التصرّف صاحبُه مخدوع.

لقد قال أبو حازم أحد التابعين:

«كل نعمة لا تقرب من الله ﷻ فهي بلية».

ومع أن النبي ﷺ قد أرسل رحمة للعالمين فإنه لما احتاج مرة للتعريف بصفاته السَّميَّة أخبر بها مع تكراره قول "**ولا فخر**" مرات عديدة. (الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦)

إذاً فالمؤمن الذي يهتمُّ بأوامر الله سبحانه وتعالى أفضل مِن نقيضه. فالعِرق ليس إلا عائد إلى الجسد الفاني، والجسد عبارة عن رداء أُلبس الروح، وأما الروح فهي أبدية لا عرق لها لأن الأرواح جميعها آتية من الله تعالى[٢].

يقول تعالى في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات، ١٣)

ويقول الرسول ﷺ:

"**...وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**" (مسلم، الذِّكر، ٣٨/ ٢٦٩٩؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٧/ ٢٢٥)

وفي يوم فتح مكة خاطب النبي ﷺ الناس فقال لهم:

"**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ**" (الترمذي، التفسير، ٤٩/ ٣٢٧٠)

١. المائدة، ٤٨؛ البقرة، ١٤٨.

٢. الحجر، ٢٩؛ السجدة، ٩؛ ص، ٧٢؛ الأنبياء، ٩١؛ التحريم، ١٢.

د. سليمان درن

لا تلوث نفسك بأدران الدنيا

لقد أرسلنا الله سبحانه وتعالى إلى هذه الدنيا للامتحان والابتلاء، وذكرنا على الدوام أن الدنيا التي خلقها كمزرعة للآخرة ليست بدار بقاء، وإنما الآخرة هي الموطن الأصلي لنا ودار البقاء. فهناك الكثير من الآيات القرآنية التي ترينا الوجه الحقيقي للدنيا. منها:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (الأنعام: ٣٢)

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨)

ودائماً ما يحذرنا الأولياء والصالحون من أهل التصوف الذين يستلهمون آراءَهم من كتاب الله من الوقوع في مستنقع أوساخ الدنيا وخبائثها. فيقول الإمام الرباني بشأن خداع الدنيا:

"الدنيا محل الامتحان والابتلاء، ظاهرها مموَّه ومزيَّن بأنواع المزخرفات، وصورتها منقوشة وملونة بالخيلان والخطوط والذوائب والخدود الموهومة، حلوة في بادئ النظر، متخيلة بالطراوة والنضارة في البصر، ولكنها في الحقيقة جيفة مرشوش عليها العطر، ومزبلة ملآنة بالذباب والدود، سراب يُرى كالشراب، وسم في صورة عسل. باطنها خراب أبتر، ومعاملتها مع أبنائها مع وجود هذه الدمامة والوقاحة شر من جميع ما يقال ويذكر. عاشقها سفيه ومسحور، ومفتونها مجنون ومخدوع، كل من افتتن بظاهرها فقد اتسم بسيمة الخسارة الأبدية ، وكل من نظر إلى حلاوتها وطراوتها كان نصيبه الندامة السرمدية ...". (المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

وفي الواقع فإن الدنيا حسب قول الإمام الرباني ليست سيئة لذاتها، وإنما الذي يحولها إلى سوء وخبث هو نسياننا للغاية التي جئنا من أجلها إلى هذا العالم، وغوصنا في مستنقع الدنيا تجاهلنا الآخرة. ومن ثم فإن استخدام الدنيا بحق دون الانخداع بها لا يعكر صفونا ولا يشينه بشيءٍ. وحسب رأي الإمام الرباني فإن هناك جملة من المشاغل التي تلوث الإنسان في الحياة الدنيا، وتنسيه الهدف الحقيقي، فيقول في معرض بيانها:

"أيها الولد ! هل تدري ما الدنيا ، كلُّ ما يعوقك ويحجبك عن الحق ﷻ من النساء، والأولاد، والأموال، والجاه، والرياسة، واللّهو واللعب والاشتغال بما لا يعنى فهو داخل في الدنيا، والعلوم التي لا دخل لها في أمور الآخرة فهي أيضاً من الدنيا ... قال النبي ﷺ:

"علامة إعراض الله تعالى عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه".

ولهذا فإن الصوفيين الذين سلكوا طريق التصوف هم أناس عاهدوا الله تعالى على حفظ أنفسهم من قذارات الدنيا وأدرانها. فالانتساب الذي يتحقق بالتوبة والإنابة يعني التوبة من حب الدنيا. غير أنه حتى أهل التصوف ليسوا بمأمن ولا مشمولين بالضمان. فالإنسان لا يكون محمياً من كل شيءٍ بمجرد سلوك طريق المعنويات والدخول فيه. فربَّما لا يمكنه المحافظة على إرادة المريدية التي هي بداية الأمر حتى النهاية. لأن الشيطان يتسلط على الذين يسلكون طريق الحق أكثر من غيرهم، فهناك الكثير ممن سقطوا في أودية الضلال والانحراف بعد دخولهم طريق الحق والسير فيه حيناً، وذلك سواء في يومنا هذا أو في الماضي. ولهذا فإن المرشدين الكاملين الحقيقيين لا يتخلون عن مريديهم الذين ضعفت توبتهم، بل يبذلون غاية جهدهم ويفعلون كل ما بوسعهم لإبقائهم على طريق الحق.

وقد وعظ الإمام الرباني مريده بكلمات ملؤها الرأفة الرحمة حيث يخاطبه بـ "أيها الولد"، وحذَّره من هذه المخاطر فقال: "أيها الولد! إن الحق سبحانه قد رزقك من كمال عنايته التي لا غاية لها التوفيق للتوبة في عنفوان الشباب، ووفقك للإنابة على يد واحد من دراويش السلسلة النقشبندية العلية (قدس اللّه أسرار أهلها) ولا أدري هل لك على تلك التوبة ثبات أو أغوتك عنها النفس بأنواع المزخرفات. وأرى الاستقامة عليها شاقَّة. فإن الموسم عنفوان الشباب، ومتاع الدنيا متيسر الأسباب، وأكثر القرناء غير مناسب في هذا الباب". (المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

ووفقاً لرأي الإمام الرباني فإنه من الصعوبة بمكان أن يحافظ السالك على صدقه في المعنويات طالما أنه محاط بأصدقاء السوء. إذ إن الأصحاب الغافلين حتى لو لم يدفعوا الإنسان إلى الحرام بصورة مباشرة، فإنهم يزينون له الدنيا ويوجهونه إليها، فيحاول الحصول على مزيد من متعها، ومن ثم يبدأ الاعتياد على أوساخها وكدوراتها تدريجياً. ولهذا فإن أهم وسيلة للحماية وخاصة في أيامنا هذه هي الإقلال قدر الإمكان من المباحات.

"أيها الولد! إن الأمر والحزم هو ترك الفضول من المباحات، والاكتفاء بقدر الضرورة، وأن يكون هو أيضاً بنية حصول القوة والطاقة لأداء وظائف العبودية، فإن المقصود من الأكل مثلاً هو حصول القوة على أداء الطاعة، ومن لبس اللباس ستر العورة ودفع الحر والبرد، وعلى هذا القياس سائر المباحات الضرورية.

واختار أكابر النقشبندية العمل بالعزيمة واجتناب الرخص مهما أمكن، ومن جملة العزائم الاكتفاء بقدر الضرورة فإن لم يستطع الاكتفاء بالضرورة فينبغي أن لا يخرج من دائرة المباحات إلى حد المشتبهات والمحرمات". (المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

والأمر الآخر الذي من شأنه أن يغرق الإنسان في أدران الدنيا هو وسوسة الشيطان حيث يقول له: "إنك ما زلت شاباً في مقتبل عمرك ولك أن تفعل ما تريد، وبإمكانك أن تتوب وتعود إلى طريق الحق عندما يتقدم بك العمر أكثر". ويفند الإمام الرباني هذه الوسوسة بقوله:

"الإنسان عبد محكوم بحكم -لم يجعله المولى ولده ولم يتركه سدى- حتى يتهافت على كل ما يشاء. فينبغي عليه التفكر وإعمال القلب. ولن يصحب الإنسان المقصر غداً شيء غير الندامة والخسارة، فوقت العمل إنما هو عهد الشباب، والعاقل من لا يضيع هذا الوقت ويغتنم الفرصة. فإن الأمر مبهم،

فعساه أن لا يبقى إلى زمن الشيخوخة، ولئن بقي فلعله لا تتيسر له القوة والطاقة، ولئن تيسرت فلعله لا يقدر على العمل في أوان استيلاء الضعف والعجز. في حين إن أسباب القوة كلها متيسرة الآن ووجود الوالدين أيضاً من إنعام الحق سبحانه وتعالى. فإن همّ معيشتك على عاتقهم، والموسم موسم الفرصة وزمان القوة والاستطاعة، فبأي عذر يمكن أن يُؤخر شغل اليوم إلى غد، ويختار التسويف؟ قال ﷺ:

"**هلك المسوفون**".

نعم إذا أخرت المهمات الدنيوية الدنية إلى غدٍ لأجل الاشتغال بأمور الآخرة في اليوم يكون فنِعْمَ الفعل فعلتَ، كما أن عكسه مستقبح جداً". (المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

وحسب نظر الإمام الرباني فإن الإنسان معرض لخداع الدنيا وإغوائها في كل مراحل حياته، إلا أن أخطر وأهم هذه المراحل هي مرحلة الشباب، حيث تزداد وتيرةُ وخطورةُ الإغواء والتغرير أكثر. إذ إن طاقاته وقدراته المادية، وقلة تجربته تجعله أكثر عرضة للخداع واستجابة للمغريات."

حسب نظر الإمام الرباني فإن الإنسان معرض لخداع الدنيا وإغوائها في كل مراحل حياته، إلا أن أخطر وأهم هذه المراحل هي مرحلة الشباب، حيث تزداد وتيرةُ وخطورةُ الإغواء والتغرير أكثر. إذ إن طاقاته وقدراته المادية، وقلة تجربته تجعله أكثر عرضة للخداع واستجابة للمغريات.

وفي هذا الوقت الذي هو عنفوان الشباب ووقت استيلاء أعداء الدين من النفس والشيطان فإن للعمل القليل من الاعتبار أكثر مما هو في غير هذا الوقت بأضعاف مضاعفة. فحسب القاعدة العسكرية: فإن العمل اليسير والثبات القليل للعساكر الشجعان الأقوياء الجنان وقت مباغتة الحرب وهجوم الأعداء اعتبار زائد وقيمة كبيرة لا يكون له مثلها في وقت الأمن من شر الأعداء".(المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

فإن كنا لا نريد التيه والضياع في دهاليز ظلمات الدنيا فينبغي أن لا ننسى الغاية التي أُرسلنا من أجلها إلى هذا العالم أبداً. ويجب أن لا يغيب عن ذهننا ولو للحظة أن الأعمال اليومية التي نقوم بها من طعام وشراب، ونوم وترحال ولهو ولعب ليست أهدافاً بذاتها وإنما عبارة عن وسائل:

"أيها الولد! إن المقصود من خلق الإنسان الذي هو خلاصة الموجودات ليس هو اللهو واللعب ولا الأكل والنوم ، وإنما المقصود منه أداء وظائف العبودية والذل والانكسار والعجز والافتقار ودوام الالتجاء والتضرع إلى جناب قدس الغفار جل سلطانه، والمقصود من أداء العبادات التي نطق بها الشرع المحمدي إنما هو منافع العباد ومصالحهم، ولا يعود منها شيء إلى جناب قدسه عز شأنه".

(المكتوبات، ١، المكتوب ٧٣)

نريد في الأعداد القادمة أيضاً أن نتشارك مع قرائنا الأعزاء هذا المكتوب الطويل القيم الذي يحتوي على وصايا الإمام الرباني للإنسان من أجل أن يجتاز هذه المغامرة والرحلة الدنيوية ويعود إلى الموطن الذي جاء منه سالماً غانماً. ومما يدعو للأسف ويحز في القلب أن الكثير من أهل التصوف اليوم لم يوفقوا في هذه المسألة، وجعلوا هذا الطريق الطاهر الجميل أداة للمنافع والغايات الدنيوية. ولم يختلفوا في ذلك عن الحركات الدينية الأخرى التي بدا عليها التلوث والتوجه الدنيوي واضحاً جليًّا. نسأل المولى ﷻ أن يحفظنا من أدران الحياة الدنيا، وييسر لنا الانتفاع بها دون أن تهيمن على قلوبنا. آمين.

من دروس

الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو

اختيار أول خليفة في الإسلام

بعد وفاة رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في السقيفة لتعيين سعد بن عبادة رئيساً. وكانوا قد دعوا عمر بن الخطاب ﷺ وهو ما يزال في دار رسول الله ﷺ.

فذهب أبو بكر الصديق وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ إلى الأنصار الذين كانوا مجتمعين في سقيفة بني ساعدة.

كان الخزرج يريدون مبايعة سعد بن عبادة ﷺ خليفة لرسول الله ﷺ. حيث قام خطيب الأنصار وقال:

"أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر".

فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر ﷺ، ثم تقدم أبو بكر بهدوء وألقى خطاباً متزناً مليئاً بالحكمة. فلم يدع الصديق شيئاً أُنزل في الأنصار أو ذكره رسول الله ﷺ من المدح والثناء إلا ذكره. ثم قال:

"لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار. وما ذكرت فيكم من خير فأنتم أهله، وإنا والله! يا معشر الأنصار! ما ننكر فضلكم ولا بلاءكم في الإسلام ولا حقكم الواجب علينا. ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر -أي الخلافة- إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب داراً ونسباً. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم".

فأخذ بيد عمر وبيد أبي عبيدة ﷺ وهو بينهما.

فأيقظت كلمات أبي بكر ﷺ هذه جماعة الأنصار من سَنَتِهم، وبينت لهم الخط القويم أو الطريق المستقيم الذي سوف يسار عليه.

وما إن سمع عمر ﷺ أبا بكر يطرح اسمه على الناس لمبايعته حتى أعلن أنه لن يقبل أن يتأمر على أناس فيهم أبو بكر ﷺ. وقال لأبي بكر أثناء النقاش والحوار الذي كان يدور بينهم وبين الأنصار:

ابسط يدك يا أبا بكر فإني أبايعك. فأخذ يد أبي بكر بيده وبايعه، فتبعه الناس جميعاً بالبيعة بما فيهم أبو عبيدة، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، ولم يمتنع عن البيعة إلا سعد بن عبادة، حيث لم يبايع في بداية الأمر. لقد كان هذا الانتخاب لأبي بكر الصديق انتخاباً شرعياً بكل ما للكلمة من معنى. ثم صعد أبو بكر المنبر وألقى خطابه الأول، فقال:

"أيها الناس! فإني قد وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله.لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله.فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

(صحبة، محمود سامي رمضان أوغلو (سيدنا أبو بكر ﷺ، ص، ٨٥- ٨٧)

من دروس

الشيخ موسى طوبّاش

نحن وذكر الله عزّ وجلّ

يقول رسول الله ﷺ:

"مثل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربه، مثلُ الحي والميت".

يُشير هذا الحديث الشريف إلى أن أهل الذكر أحياء معنوياً، وأما أهل الغفلة الذين لا يذكرون الله تعالى فهم بمثابة الأموات معنوياً. ويظهر بين الفئتين فرق متعاكس مهم.

إن نعمة الذكر من أعظم النعم التي أكرم الله تعالى بها عباده الذين أحبهم، ولا يُمكن تصور إحسان ولطف أسمى وأفضل من هذه النعمة أبداً.

والذكر معيار مهم من معايير العشق والإيمان. فالمحب كثير الذكر لمحبوبه، فهو لا يتوقف عن ذكره ليل نهار، وفي كل ساعة ولحظة. فهل بإمكاننا نحن كعباد أن نذكر ربنا بقلوبنا كل لحظة، أن نذكر الله تعالى المنعم الحقيقي الذي أعطانا كل شيء دون ثمن، وأسبغ علينا نعماً ظاهرة وباطنة لا تُحصى؟ وإنَّ ذِكرنا هذا هو من كرم الله تعالى ولطفه بنا.

إن الإنسان مكلف بذكر الله تعالى بشكل دائم. فيجب عليه أن يشغل لسانه وقلبه بذكر ربه عز وجل.

لقد كرم الله تعالى الإنسان. ولكن من أي ناحية؟ فهل كرمه من ناحية الطعام، والشراب، والنوم مثل الحيوان؟ بالطبع لا؛ فالتكريم إنما هو من الناحية الروحانية، ومن هنا جعله خليفة له في الأرض.

وصاحب العقل السليم يحمد الله تعالى ويشكره دائماً وأبداً على هذه النعمة الفريدة وهذا التكريم العظيم، ويعزم بهمة على الإيفاء بواجب العبودية لربه بغاية الأدب والتعظيم، ويسعى ويجهد للمحافظة على ذكره في كلِّ لحظة من لحظات حياته.

من رُزق ذكر الله تعالى رُزق كل شيء. ومن حُرم ذكر الله خسر كل شيء.

من نال ذكر الله وصل إليه، ومن لم يذق تلك النعمة بقي في صحراء جرداء.

ومن حافظ على الذكر الدائم بقلبه حقق اليقين في الإيمان، وأحب ربه سبحانه وتعالى بعشق. وإذا داوم على الذكر فُتحت أمامه الطرق المعنوية، ورفعت الحجب وأزيحت الستائر عن عينيه.

إن ذكر الله نور للنفس، وسلام وطمأنينة للروح، وجلاء للقلب، وميزان للعقل. ومن أدام الذكر عُمر قلبه، وحسنت أخلاقه، وانتشت وطربت روحه.

من أدام ذكر الله هيمنت عليه السعادة والسرور، وزال عنه الهم والكدر. ومن أدام الذكر لم يألف أمور الدنيا وأهلها، لأن ألفة الغافلين تقسي القلب.

إن القلب محل النظر الإلهي فينبغي أن يكون الإنسان حريصاً على حفظه وحمايته. ولأجل ذلك عليه بمصاحبة الصالحين، وأهل الذكر والمعنويات، وبناء علاقات الألفة معهم وحضور مجالسهم.

إن مقام الراضية المرضية يظهر لدى بعض الأولياء من أصحاب المراتب العالية والرفيعة.

(صادق دانا، ث آلتن أولوك- ١، ص، ٦٦- ٦٨)

عثمان نوري طوبّاش

التصوف

وصولٌ إلى الكمال بالقرآن والسنة (٤)

لقد خلقنا الله ﷻ في أحسن تقويم، وعلى فطرة الإسلام دون أدنى مقابل. وزودنا بالنفس لأجل ابتلاء في الدنيا، التي من صفتها وطبيعتها الميل إما إلى التقوى، أو الفجور، فإمَّا أن تسلك طريق الخير وتتوجه إلى الطاعة، أو تسلك طريق الشر تتوجه إلى المعصية.

من هنا فإن أكبر عائق وعقبة ينبغي علينا التغلب عليها وتجاوزها للنجاح في امتحان العبودية في هذه الحياة الدنيا هي النفس الكامنة بين جنباتنا. وللتغلب على عقبة النفس لا بد من تزكيتها، فلا بد من أن نخوض رحلة التكامل والتربية المعنوية.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:

"الإنسان كشمع العسل. يتأثر شكله جمالاً أو قبحاً، من خلال التربية."

فنجد طفلين في سنِّ الثالثة، أحدهما يطعم جرو الكلب الصغير حليباً، والآخر يطارده ويرجمه بالحجارة. فما هذه الأفعال إلا نتيجة فارق التربية التي تلقاها كلُّ واحدٍ منهما. إن التربية المعنوية ضروريةٌ للإنسان من أجل التخلص من النقائص، والقضاء على الميول السلبية القبيحة، وتنمية الاستعدادات والميول الإيجابية الجميلة.

وكذلك يرى الإمام الغزالي أن للإنسان ثلاث قوى فطرية، من شأنها تحديد شكل أحواله وتصرفاته وسلوكياته. وهي:

١) القوة العقلية.

٢) القوة الغضبية.

٣) القوة الشهوية.

وتنعكس هذه القوى الفطرية الثلاثة على الحياة بثلاث صور: الإفراط، والتفريط، والاعتدال.

فأما الإفراط فهو تجاوز الحدود والمعايير، والوقوع في المبالغة والجموح فوق حد الاعتدال.

وأما التفريط فهو عكس الإفراط. أي النقصان والقصور والخمول والتهاون، والبقاء تحت حد الاعتدال.

وأما الاعتدال فهو الوسط بين الإفراط والتفريط، أي المستوى المقبول للأحوال والتصرفات.

فإفراط قوة العقل مكرٌ وخِداع. وتفريطها بلاهةٌ وحماقةٌ. وأما اعتدالها المقبول فحسنُ تدبيرٍ وفطنةٌ، ورجاحة رأي.

وأما إفراط قوة الغضب فحِدَّةٌ، وتهوُّرٌ. وتفريطها جبنٌ. وأما اعتدالها المقبول فشجاعةٌ؛ واستخدام للقوة والجسارة بقدرها الضروري.

وأما إفراط قوة الشهوة ففجورٌ، ووقاحةٌ، وبعد عن الأخلاق. وأما تفريطها فجمودٌ. وأما اعتدالها المقبول فأدب، وعِفَّة، وحياء.

إذاً؛ فالتربية المعنوية هي سعي الإنسان لحفظ قواه وميوله وطاقاته من الإفراط والتفريط، والوقوف بها عند مستوى الاعتدال المقبول.

فإذا تُركت هذه الميول الفطرية والغرائز الفطرية بشأنها ولم تَخضع للتربية فإنها تصبح وسيلةً للشرِّ وليس للخير؛ وتتسبب بالضرر بدل النفع. وبناء على ذلك، فإن الإنسان كائن محتاج للتعليم والتربية بشكلٍ حتميٍّ.

وقد أهدى الله ﷻ للإنسانية أعظم المعلمين والمربين وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام. حيث أرسل الأنبياء بشكل خاص في عصور الجاهلية التي أضاعت فيها البشرية الحقوق وانتشرت المظالم. فربَّى الأنبياء أتباعهم وأرشدوهم على ضوء تربية الوحي، وأنقذوهم من ظلمات الجاهلية إلى نور العلم والمعرفة، فجعلوهم رجالاً كالنجوم استلموا أسس بناء حضارة الفضائل والخير.

وظائف الأنبياء أهمُّها ثلاثٌ: جاء في القرآن الكريم: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: ١٥١)

يلفت الله تعالى في هذه الآية الكريمة الأنظار إلى ثلاث وظائف مهمة لرسول الله ﷺ، وهي:

١. تلاوة آيات الله تعالى (**يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا**).
٢. التزكية (**وَيُزَكِّيكُمْ**).
٣. تعليم الناس الكتاب والحكمة (**وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**): أي تعليم الناس الأسرار والحكم الإلهية الكامنة في الكون، والحوادث وتقلب الأزمنة.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان قد بدأ دعوة أمته إلى الإسلام وعقيدة التوحيد بتلاوة الوحي الذي كان ينزل عليه وتبليغهم إياه. إلا أن هذه الوظيفة هي المرحلة الأولى من مراحل إيصال الناس إلى الهدف النهائي.

وأما الوصول إلى المقصد الأصلي لدعوة التوحيد فيكون بالتطهر التام من قبائح وأدران النفس المعنوية مثل: الكفر، والشرك، والنفاق، والرياء، والكبر، والحسد؛ وببلوغ فضائل الأخلاق من مثل الإخلاص، والتقوى، والخشوع، والطمأنينة والسكينة. يقول أبو الحسن الخرقاني في هذا المجال:

"الصلاة، والصوم وسائر العبادات عظيمة، ولكن تصفية القلب من الكبر والحرص والحسد وغيرها من الصفات الذميمة أعظم وأجل". (العطار، تذكرة الأولياء، ص، ٦٢٩)

"لو تطايرت شرارة من التنور إلى ثيابك، فإنك تسارع إلى إطفائها! إذاً؛ فكيف تسمح ببقاء نار شأنها إحراق دينك في قلبك، فكيف تغض الطرف عن خصالك القبيحة مثل الكبر والحسد، والرياء وهي تتوقد في قلبك؟!" (الخرقاني، نور العلوم، ص، ٢٣٩)

إذاً؛ التزكية هي تمرير المشاعر والأحاسيس في غربال الإيمان، والوصول إلى حالة نقية صافية من كل شائبة.

وقد فسَّر ابن عباس ﵄ عبارة التزكية الواردة في الآية المذكورة بأنَّها "قولُ المرْء: لا إله إلا الله!". (القرطبي، الجامع، ٢٠، ٢٢)

إذ الخطوة الأولى في التزكية هي تطهير القلب من الكفر والشرك.

فكلمة التوحيد تبدأ أولاً بالنفي. وكأنَّك تخرج بقولك: "لا إله" كافة الأهواء والشهوات والرغبات والخصال النفسانية السيئة التي تحولت إلى ما يشبه الأصنام في القلب. ثم تنتقل بعدها إلى الإثبات. أي يتمُّ مَلْء القلب الذي يُعد محل النظر الإلهيِّ بنور توحيد الله تعالى من خلال قولك: "إلا الله".

ويعبر الشاعر عن هذه الحقيقة بقوله:

"هيا أخرجِ الأغيار وأبعدهم عن لسانك حتى يتجلى الحقّ؛ فالسلطان لا يدخل القصر من غير إصلاحٍ وتزيين...".

وبعد مرحلة التطهير القلبي تأتي مرحلة " تعلُّم الكتاب" الذي يتم فيه بيان الأوامر والنواهي الإلهية التي يجب الالتزام بها.

وإن إمكانية التعمق بالتفكير في القرآن الكريم والتأمل فيه وتدبره تكون بالوصول إلى طهارة القلب. لأنه لا يمكن تلاوة القرآن بتدبر وفهم وإدراك إلا بقلب طاهرٍ نظيف. يقول عثمان ﵁:

"لو كانت قلوبكم طاهرةً، لما شبعتم من كلام الله". (علي المتقي، ٢، ٢٨٧/ ٤٠٢٢)

وبناء على ذلك؛ يشترط أولاً تخليص العالم الداخلي من تأثير الأفكار الباطلة، والمشاعر السفلية، وتزيينه بعقيدة صحيحة سليمة، تزيينه بإيمان سليم وأخلاق حسنةٍ كريمة. وبعد كل هذه المراحل يبدأ العبد بالتحول إلى مظهر لتجليات الحكمة، إلى مظهرٍ لإدراك حقائق الحوادث، والأشياء الباطنية والسرية.

الخطوة الأولى في التزكية هي تطهير القلب من الكفر والشرك. فكلمة التوحيد تبدأ أولاً بالنفي. وكأنَّك تخرج بقولك: "لا إله" كافة الأهواء والشهوات والرغبات والخصال النفسانية السيئة التي تحولت إلى ما يشبه الأصنام في القلب. ثم تنتقل بعدها إلى الإثبات. أي يتمُّ مَلْء القلب الذي يُعد محل النظر الإلهيِّ بنور توحيد الله تعالى من خلال قولك: "إلا الله".

العلم الغير نافعٍ ...

إن اقتران ذكر "التزكية" و"تعليم الكتاب والحكمة" في الآية الكريمة أمرٌ ملفتٌ للانتباه. فهو يشير في أحد معانيه إلى أنه لا يمكن تحصيل العلم بالمعنى الحقيقي بقلبٍ لم يُزكَّ بعد، وأن الذي يتم تحصيله بدون تزكية القلب ويُظن علماً فإنه لن ينفع صاحبه في طريق الخلاص الأبدي.

ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه:

"اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومِن دعوة لا يُستجابُ لها" (مسلم، الذكر، ٧٣)

فالإنسان الذي لم يرتق قلبياً محكوم بالجلافة والقسوة. وإذا حصّل العلم وهو بهذه الجلافة فإنه يضر ولا ينفع. فمثلاً إذا صار الإنسان طبيباً وهو فاسد القلب فإنه سيسعى جاهداً لتلبية رغباته وشهواته النفسانية ويتحول إلى سفاحٍ يتاجر بصحة وأعضاء الناس، فيهلكهم بدلاً من أن يعالجهم ويشفيهم. وكذلك المحامي، فإنه سوف يتحول إما إلى رئيس لشبكة إجرامية، أو إلى جلّاد ظالم، بدلاً من تحقيق العدالة بين الناس.

لأنَّ النفس الأسيرة بين يدي الشهوات والأهواء تجعل العلم الذي تحصله أداةً لتحقيق المنافع والمصالح الدونية. وإن مثل هذا الإنسان سوف يرتكب بالعِلم الذي امتلكه مظالم أفظع مما لا يستطيع الجاهل ارتكابه بجهله. أي أن العلم في يده يتحول إلى حجاب غفلة تزيده عن الحق بعداً، بدلاً من أن يكون مشعل نور يزيده منه قرباً.

يقول مولانا ـ قدس سره ـ:

"كثير من العلماء لا نصيب لهم من العرفان. حيث حفظوا العلم عن ظهر قلب وتجرعوه، ولكنهم لم يصبحوا العبد الذي يحبه الله تعالى!".

وينبغي أن لا ننسى أن كافة العلوم عبارة عن سعي لاكتشاف القوانين والأنظمة التي بثها الله ﷻ في الكون. وأما العلم الحقيقي فهو عدم التوقف عند تلك المرحلة، وإنما التقدم بمزيد من خطوات إلى الأمام والتعرف على قدرة الذي وضع تلك القوانين، ومن ثم الانتقال إلى الأسرار والحكم الإلهية.

فقد عبر مولانا عن المرحلة التي بلغ فيها ذروة العلوم الطبيعية إلا أنه لم يكن قد نال بعد حظاً من القرب إلى الله تعالى بقوله "كنت نيئاً"؛ وعبر عن المرحلة التي بدأ فيها بالوقوف في أجواء قلبية على الأسرار والحكم الإلهية، وترجمة صفحات كتاب الكون بقوله "فنضجت"؛ وعن مرحلة معرفة الله التي اكتوى فيها بالأسرار الإلهية، ووصل إلى العشق الحقيقي بقوله "فاحترقت".

ومن جانب آخر؛ فإنه لا نفع لأي عمل من أعمال الذي لم يفلح في البلوغ بقلبه إلى الاستقامة وفق معايير القرآن والسنة، مثل تحصيل العلم وغيره. كما قال الإمام علي ﷺ:

"ظِل المعوج معوج مثله."

إن كافة أحوال الإنسان وحركاته وتصرفاته إنما هي انعكاس لعالمه الداخلي. فكما أنه لا ينتج خط مستقيم من المسطرة المعوجة، فكذلك من العبث انتظار تصرفاتٍ وأعمالٍ فاضلةٍ من إنسانٍ لم يطهر عالمه الداخلي ويصفِّه. فطريق أصحاب النوايا المظلمة لا يضاء. وكل إناء بما فيه ينضح. فلا تظهر أحوالٌ وتصرفاتٌ وأعمالٌ نظيفةٌ وبراقةٌ بالمعنى الحقيقي من قلب ملوثٍ ومتكدِّرٍ.

وبالتالي فإنَّ تحصيل العلم الحقيقيِّ ليس مجرد تخزين المعلومات في الذهن فحسب. بل لا بد لكي يكون العلم نافعاً لصاحبه في الدنيا والآخرة من خضوعه لتربية معنوية فيرتقي قلبياً نتيجة لتلك التربية، وينضج ويكتمل وجدانياً وأخلاقياً.

وإن غاية التصوف هي تزكية النفس، وإعداد الأرضية اللازمة لانكشاف الأحاسيس والمشاعر القلبية. إذ لا بد لكي يحصّل الإنسان الحكمة والعلم الحقيقي من أن يصفي قلبه الذي سيكون مستقراً لتلك المشاعر من كافَّة الأشياء والأمور الضارَّة، وحتى من الأفكار الثانوية وغير الضرورية.

جاء في إحدى قواعد مجلة الأحكام العدلية:

"درْء المفاسد أولى من جلب المصالح".

أي إنَّ التخلُّص من الأشياء القبيحة والفاسدة مقدَّمٌ على اكتساب الأشياء النافعة والحصول عليها. ولهذا نجد أن الجُرح ينظّف ويُطهَّر من الجراثيم والقيح المتراكم أولاً، ثم يُضمَّد. وإلا فإنَّ الجرح لن يندمل ويُشفى مهما كان الضماد جيداً.

التّخَلِّي، التَّحَلِّي، التّجَلِّي ...

تُختصر رحلة التكامل المعنوي في التصوف بالجملة الآتية: "التخلي، ثم التحلي، ثم التجلي"

أي أن الرحلة المعنوية تبدأ:

أولاً بالتخلي؛ أي إفراغ العالم الداخلي من كلِّ الأمور والأشياء التي من شأنها إبعاد العبد عن الله تعالى؛ أي تطهير وتنظيف القلب من كافة الميكروبات والالتهابات المعنوية مثل: الشرك، والكفر، والنفاق، والرياء، والغرور، والكبر، والعجب، والحسد. ثم يأتي التحلي؛ أي التزود والتحلي بكل الأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة التي من شأنها تحبيب العبد إلى ربه، وجلب المحبة الإلهية. ويأتي على رأس هذه الأعمال والأخلاق إضافة إلى الفرائض نوافل العبادات، والخصال الأخلاقية مثل: السخاء، والكرم، والرحمة، والشفقة، والخدمة، والتضحية.

ثم يأتي التجلي؛ وهو نيل نصيب من التجليات المعنوية نتيجة للمراحل المتقدمة. أي التوجه نحو قمة معرفة الله ومحبة الله بعد اكتساب رقة القلب والغوص في أعماقه.

إذاً إن الله تعالى لا يكرم بأسرار وحكم تجليات القدرة والعظمة الإلهية المبثوثة في الكون وفي القرآن الكريم إلا القلوب المصفاة، والقلوب السليمة التي طُهِّرت ونُقيت معنوياً حتى صارت برَّاقة شفَّافة.

المرشدون الكاملون...

لقد قدَّم الله ﷻ للبشرية نموذج الإنسان الكامل بأمثل صورة في شخص نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام. ولهذا فإن أعظم مرشدٍ وقدوةٍ لنا هو رسول الله ﷺ دون أدنى ريب وشك.

وإلى جانب ذلك؛ فإن إحدى وظائف نبينا عليه الصلاة والسلام الثلاث هي مهمة الإرشاد وهي تعني تلاوة الآيات وتبليغ الحلال والحرام؛ وتزكية النفس وتصفية القلوب من قبل العلماء، وقد تم الإيفاء بهذا الواجب وأداء هذه المهمة إلى يومنا هذا على يد المرشدين الكاملين.

وإن المرشدين الكاملين هم الشخصيات المثالية والنموذجية الذين يُعدون بحق ورثة الأنبياء. وهم ذروة كمال الإرشاد والسلوك النبوي الممتد والمشع على مر العصور والأزمان. أي أنهم "نماذج الإنسان الكامل" الذين سيُتخذون قدوة ومثلاً من قبل المحرومين من شرف رؤية أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام. وإن إرشاداتهم ووصاياهم التي تصدر بلسان الرحمة وتبث الحياة في القلوب هي في أساسها بمثابة قطرات روحانية مترشحة من المنبع النبوي.

وإن الخدمة التي يقوم بها المرشدون الكاملون هي عبارة عن سعيٍ للإيفاء بمهمة الأنبياء في التزكية والمحافظة على استمراريتها.

وبناء على ذلك فإن التصوف بدوره عبارة عن مدرسة معنوية يشرف عليها المربون الحقيقيون الذين صاروا ورثة النبي عليه الصلاة والسلام، وهي مدرسة تجري فيها تزكية النفس، وتصفية القلب.

الشعور برعاية السنة ...

إن أهم ما يختصُّ به المرشدون الحقيقيون ويعدُّ بمثابة علامة فارقة لهم هو ارتباطهم وطاعتهم الفريدة والاستثنائية لرسول الله ﷺ. فسمتهم الأبرز هو حرصهم الشديد على رعاية واتباع القرآن الكريم وسنن رسول الله ﷺ التي تعدُّ التفسير الفعلي والعملي للقرآن، وكذلك تربية محبيهم وتعويدهم على الحرص عليها والشعور بعظمتها.

وتوضح الحادثة الآتية هذا الأمر خير إيضاح:

ذات يوم خرج أبو يزيد البسطامي الذي يُعد من كبار المرشدين الكاملين مع تلامذته ليلتقي برجل شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً هذا الرجل يقصده الناس وكان مشهوراً بالزهد. فلما اقتربوا منه خرج الرجل من بيته ورمى ببصاقه تجاه القبلة ثمَّ دخل المسجد. فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه حتى، وقال: "هذا غير مأمونٍ على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه؟!.." (القشيري، الرسالة، ص، ٥٧، ٤١٦- ٤١٧)

وكذلك كان أبو يزيد البسطامي يقارن كلَّ حالة من أحواله بحالة الرسول عليه الصلاة والسلام، فيجعل حالة النبي ميزاناً فعلياً لحركاته وسكناته. وكان من أهم وصاياه قوله:

"من ترك قراءة القرآن، والتقشف، ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى وادعى هذا الشأن (أي التصوف) فهو مبتدع" (البيهقي، الشعب، ٣، ٣٠٥؛ ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص، ١٥١)

يعني؛ إذا ابتعد المريد وناهيك عن المرشد عن مثل هذه السنن، أي عن واجبات العبودية الفردية منها والجماعية فإن ذلك دليل على أنه لا علاقة لمعاشه وقيامه وقعوده بالتصوف أبداً.

وإن صلاة التهجد، والقيام في الأسحار سنة مهمة للغاية أيضاً. حيث إن الرسول ﷺ لم يكن يترك صلاة التهجد ولو كان في أطول أسفاره وأكثرها مشقة وتعباً. وانطلاقاً من ذلك فإنه لا يتصور ابتعاد أهل التصوف عن التهجد وإحياء الأسحار أو تساهلهم في هذا الأمر.

فقد قال أبو يزيد البسطامي: "لم يُفتح علي بسر أبداً من غير أن تصبح الليالي نهاراً".

وكذلك يقدم لنا أبو يزيد معياراً فريداً يدل على مدى حرصه على اتباع السنة النبوية ومراعاتها في حياته، وذلك بقوله:

"لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة الأكل والشراب، ومؤنة النساء. ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا ولم يسأله رسول الله ﷺ إياه؟! فلم أسأله" (القشيري، الرسالة، ص، ٥٧؛ المناوي، فيض القدير، ٦، ١٠٨)

إذاً يجب عدم اتباع الذين يتقمصون باسم الزهد والتقوى أحوالاً، ويقومون بتصرفات وأنواع من السلوك ليست موجودة في سنة رسول الله ﷺ. لأن هؤلاء الناس إنما يجعلون أنفسهم بهذه الرياضة والمجاهدة المفرطة والمبالغ فيها في مقام أعلى من رسول الله ﷺ من حيث التدين والزهد، وهذا ليس إلا جرأة على النبي عليه الصلاة والسلام، وغفلة وضلالاً.

إن أهم ما يختصُّ به المرشدون الحقيقيون ويعدُّ بمثابة علامة فارقة لهم هو ارتباطهم وطاعتهم الفريدة والاستثنائية للنبي ﷺ. فسمتهم الأبرز هو حرصهم الشديد على رعاية واتباع القرآن الكريم وسنن النبي ﷺ التي تعدُّ التفسير الفعلي والعملي للقرآن، وكذلك تربية محبيهم وتعويدهم على الحرص عليها والشعور بعظمتها. ولهذا يستحيل أن يكون مرشداً كاملاً من لا يراعي السنة النبوية، أو لديه تقصير وإهمالٌ وتراخٍ في هذا الجانب.

وقد قال الله ﷻ بصدد تحذيره من هذا النوع من التمادي وتجاوز الحدود وقلة الأدب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ...﴾ (الحجرات: ١)

وعلينا أن لا ننسى أن نبينا ﷺ الذي يُعد أقرب عبد إلى الله تعالى كان يوصي بالاعتدال والوسطية في كل أمر، وقد كان بذاته هو مثالاً حياً على ذلك.

وإن الواقعة الآتية تبين هذا الأمر خير بيان:

عن قتادة في قوله:

"يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم"، الآية، ذكر لنا أنّ رجالا من أصحاب النبي ﷺ رَفَضوا النساء واللحم، وأرادوا أن يتّخذوا الصوامع. فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ قال: "**ليس في ديني تركُ النساء واللحم، ولا اتِّخاذُ الصوامع**" وخُبِّرنا أن ثلاثة نفر على عهد رسول الله ﷺ اتَّفقوا، فقال أحدهم: أمَّا أنا فأقوم الليل لا أنام! وقال أحدهم: أمَّا أنا فأصوم النهار فلا أفطر! وقال الآخر: أما أنا فلا آتي النساء! فبعث رسول الله ﷺ إليهم فقال: "**ألم أُنبَّأْ أنكم اتّفقتم على كذا؟**"

قالوا: بلى! يا رسول الله، وما أردنا إلا الخير! قال:

"**لكني أقومُ وأنامَ، وأصوم وأفطر، وآتي النساء، فمن رغب عن سُنَّتِي فليس منِّي**" وكان في بعض القراءة: "**من رغب عن سنتك فليس من أمتك وقد ضل عن سواء السبيل**" .

وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لأناسٍ من أصحابه: "

إن مَنْ قبلكم شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، فهؤلاء إخوانهم في الدُّورِ والصوامع! اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وحُجُّوا واعتمروا، واستقيموا يستقم لكم"

فنزل قول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (المائدة: ٨٧)

(الطبراني، ١٠/ ٥١٦)

إذاً لا خير في أنماط الحياة التي تكون خارج دائرة المعايير التي وضعها رسول الله ﷺ للحياة البشرية. بل على العكس، إذ إنها تقود الإنسان إلى جملة من الأزمات الروحانية والنفسية. مثل الوقوع في حالة القلق، والاضطراب والتوتر، وفقدان التوازن، والاكتئاب، والعصبية، أو الانزلاق إلى الطرق غير المشروعة...

وبناء على ذلك فإن أقوم وأصوب طريق هو تلبية الاحتياجات البشرية ضمن دائرة الحلال وبشكل متوافق مع السنة النبوية. فلا يمكن اعتبار تحريم بعض أشكال الحلال لمبررات تبدو في الظاهر محقة مثل خدمة الدين أو التقرب إلى الله أكثر، لا يمكن اعتبارها على أنها من مقتضيات التدين أبداً.

ولذلك ينبغي على المؤمن أن يتذكر دائماً وقبل كل شيءٍ أن أعظم مرشد وقدوة هو رسول الله ﷺ. وأن يسعى جاهداً للتعرف عليه عن قرب. وأن يقيس كل حالة من أحواله بحاله عليه الصلاة والسلام. وبعد ذلك يصبح من السهل جداً تمييز الذي يسير على نهج رسول الله ﷺ من المتنكب عنه، ومعرفة من الذي يجب الاقتداء به، ومن يجب الابتعاد عنه.

يقول المفسر البورصوي في هذا المجال:

"فإذا اتبعت فاتبع سيد المرسلين محمداً ﷺ الذي آدمُ ومن دونه من الأنبياء والأولياء تحت لوائه.

وإذا اتبعت واحداً من أمته فلا تتبعه لمجرد كونه رجلاً مشهوراً بين الناس مقبولاً عند الأمراء والسلاطين، بل الواجب عليك

أن تعرف أولاً الحق ثم تزن الرجال به. وفيه قال باب العلم الرباني علي ﷺ:

من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال بل اعرف الحق (من القرآن والسنة) تعرف أهله".

(روح البيان، ج٦، ص، ٣٧٠- ٣٧١، منشورات الأرقم)

وبناء على ذلك، فينبغي عدم إيلاء أي اعتبار وأهمية للذين ليسوا حريصين على مراعاة القرآن والسنة النبوية في معاشهم وحركاتهم وسكناتهم ـ وإن كانوا مشهورين بين الناس بالتقوى والإرشاد ـ . وإن ظهرت عليهم أحوال تشبه الكشف، والكرامة، والفضيلة فينبغي التعامل معها بحذر. لأن أكثر هذه الأحوال ليست كرامة وفضيلة، وإنما استدراج.[1]

وقد لفت جنيد البغدادي ـ قدس سره ـ الأنظار إلى هذه الحقيقة فقال:

"إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء، وحاله لا يطابق الكتاب والسنة فهو استدراج (وليس كرامة)".

يقول مولانا ـ قدس سره ـ:

"إن القرآن الكريم هو أحوال وصفات الأنبياء. فإذا تلوته وطبقته فاعتبر نفسك مع الأنبياء والأولياء! وإذا تلوت القرآن ولم تتبع أوامره، ولم تتخلق بأخلاقه؟ فلا فائدة في صحبتك للأنبياء والأولياء ولا في رؤيتك لهم..".

وقال عبد الله الجرجاني:

"لا يبلغ العبد مرتبة "فناء النفس" إلا إذا أخذ القرآن الكريم بيد، والسنة المطهرة بالأخرى وسار على الطريق بنورهما."(عبد الرحمن جامي، نفحات الأنس من حضرات القدس (تحقيق: محمود عابدي)، طهران ١٣٧٥ ه/ ١٩٩٦، ص، ٣٨٤)

وكذلك أوصى أحد مريديه فقال له:

"لا تنقطع عن تعلم العلم أبداً! فتعلَّم الفقه والحديث! واياك وتزمت الجاهلين، فيضلَك عن طريق الدين... واستمسك بالسنة النبوية، وسر على طريق الأئمة الصالحين!..".

انظر ممن عمن تأخذ دينك. فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لابن عمر ﷺ:

"يا ابن عمر دينَك دينَك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا" (الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، ص، ١٢١)

ولذلك ينبغي على المؤمن أن يتعلم الحق والحقيقة أولاً من القرآن والسنة. ثم يحدد الإنسان الذي سيتخذه مرشداً ودليلاً وفق معايير القرآن والسنة أيضاً، ويحاول جاهداً السير على منهاجهما. إذ لا يستطيع أحدٌ أن ينفع الذين لا يتبعون القرآن والسنة، ولو كان مرشداً كاملاً حقيقياً.

نسأل الله تعالى أن يكرمنا بعمر نمضيه على منهاج القرآن والسنة، ويوفقنا للسير على طريق أحبائه، ويحشرنا مع عباده الصالحين.

آمين!..

---

١ الاستدراج: نقيض الكرامة. فهو جملة من الخوارق التي تظهر على يد بعض الكافرين والفاسقين والمتمشيخين، أي على يد أدعياء الولاية رغم أنهم بعيدون عنها كل البعد. وهذه الخوارق والأحوال هي امتحانات وابتلاءات إلهية تقود أصحابها تدريجياً إلى الهلاك

الدين والتدين

(التوحيد، والاستقامة، والصدق/ النصيحة، والعبادة)

إسماعيل لطفي جاكان

إن مفهوم الدين كل متكون من جملة من المعتقدات والمشاعر والعواطف التي تمتد نتائجها إلى الآخرة.

والدين اصطلاحاً: نظام إلهي يقود العقلاء بإرادتهم ورغبتهم إلى الخير، وإطار عبودية، وطريق موصى به من قبل الله والذي يوصل الناس إلى الخالق عز وجل. ولهذا فإنه ظاهرة، وحقيقة موجودة منذ وجود الإنسان الأول. وإن الصيغة الأكمل والنهائية لمفهوم الدين هي الإسلام الذي اختار الله عز وجل للمسلمين ورضيه لهم، وبلغ به مبلغ الكمال.

إذا قيل أن "المسلم قيمة فقدت وأضاعت ذاتها" بحالته المشاهدة في الحياة، وليس بالصيغة الموجودة في الكتب فهذا القول في محله. ويمكن اختصار أعظم أمراض المسلم بـِ " الإقبال والانكباب المفرط على الحياة الدنيا". لأنه بهذه الحالة لا يعير اهتماماً كافياً لأي شيءٍ عدا مأكله، ومشربه، وملبسه. وحتى أنه يفضل ويقدم مصالحه الاقتصادية، والاجتماعية، وانتماءه القبلي أو القومي على واجباته الدينية، وأخوة الدين.

هناك بعض المسلمين اعتادوا بشكل ما على ضياع ذواتهم، واكتسبوا في أوساط الباطل والعلمانية شخصية جديدة. وصاروا تدريجياً يشاركون وبنسبة كبيرة التيار الذي يرى الشذوذات أمراً طبيعياً، ويرحب بها. والحال أن المسلم مكلف بالالتزام بمبادئ وأسس الإسلام وتطبيقها، وحمل من هم تحت مسؤوليته للالتزام بها

قدر استطاعته. لأن المسلم صاحب عزيمة، وإرادة، ومسؤولية بشأن تطبيق الإسلام. وبعبارة أخرى إذا جُعل الدين والتدين أنموذجاً من خلال تطبيقه في الحياة بصدق وإخلاص بعيداً عن الرياء، فإنه يُحدث تأثيره المنتظر منه. واليوم هناك حاجة ماسة وملحة لهذا الأمر بالنسبة لكافة شرائح وطبقات المجتمع ، وعلى كل المستويات وبما فيهم المتدينون. فادعاء التدين الذي لم يُطبق على أرض الواقع أو لم يصل إلى السوية المطلوبة يبقى بأخف العبارات عبارة عن خداع.

وبناء على ما تقدم ينبغي للوصول إلى تدين سليم وذي معنى العيش ضمن إطار أوامر ونواهي ربنا الذي وهبنا الحياة، وسنة رسوله الكريم الخاتم، والعبد القدوة المبعوث رحمة للعالمين، دون التفات أو انجرار خلف المفاهيم، والممارسات، والدعوات الدنيوية التي ينادي بها الآخرون.

وأعتقد أن هناك فائدة للتذكير ـ ولو باختصار ـ بالمقتضيات والخصائص الأساسية لهذا الإطار على ضوء الأحاديث النبوية، وذلك من ناحية إسهامها في تحقيق وحدة الأمة.

ينبغي للوصول إلى تدين سليم وذي معنى العيش ضمن إطار أوامر ونواهي ربنا الذي وهبنا الحياة، وسنة رسوله الكريم الخاتم، والعبد القدوة المبعوث رحمة للعالمين، دون التفات أو انجرار خلف المفاهيم، والممارسات، والدعوات الدنيوية التي ينادي بها الآخرون.
وأعتقد أن هناك فائدة للتذكير ـ ولو باختصار ـ بالمقتضيات والخصائص الأساسية لهذا الإطار على ضوء الأحاديث النبوية، وذلك من ناحية إسهامها في تحقيق وحدة الأمة.

التوحيد والاستقامة...

يقول أبو عمرو سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه والذي روى عن رسول الله عليه الصلاة والسلام خمسة أحاديث فقط، يقول:

قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك – وفي حديث أبي أسامة غيرك –.

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

"قل: آمنت بالله، فاستقم" (مسلم، الإيمان، ٦٢؛ النسائي، السنن الكبرى، ٦، ٤٥٨)

إن الأحاديث التي تعرف وتبين الإسلام والإيمان، والدين والتدين من زوايا مختلفة ترد في أقسام الإيمان لكتب الحديث لدينا، وفي كتب الإيمان المستقلة.

ومن بين هذه الأحاديث التي تقدم الإسلام بصورة ملخصة ومختصرة للغاية وكأنها تضعه في معادلة رياضية بصيغة التوحيد+ الاستقامة= الإسلام، هو هذا الحديث الذي ذكرناه.

إذا كان تعريف دين الإسلام يشتمل على عنصرين أساسيين هما التوحيد، والاستقامة، فهذا يعني أن الاستقامة سوف تستند على عقيدة توحيد خالصة. فلا مجال للحديث عن استقامة لا تقوم على عقيدة التوحيد. ولكن لا بد أن نشير إلى الأمر الآتي: وهو لا يمكن القول "أن كل من لديه عقيدة التوحيد يمتلك بالضرورة حياة مستقيمة". مع أنه من حيث المبدأ الإيمان الحقيقي يستوجب الاستقامة. إلا أن الممارسة والتطبيق كأمر مرتبط باختلاف مستوى ونوعية الإيمان قد لا يعطي ذات النتيجة بالنسبة لكل مؤمن.

وعلى ذلك فإن عقيدة التوحيد شرط أساسي للاستقامة، ولكن الاستقامة ليست نتيجة حتمية للتوحيد. ولكن لا ريب أن الكمال يمكن أن يجمع بين التوحيد والاستقامة.

كما أن جواب النبي ﷺ المتقدم يُعد مثالاً على خاصية جوامع الكلم التي كان يتمتع بها، فإنه في الوقت ذاته يقدم لنا مهمة النبوية وجوهر الدين الذي جاء به بمعناهما التام، وبعبارة أخرى إنه جواب يضع أمامنا لب اللب. فالحديث النبوي المذكور ورد في صحيح مسلم تحت عنوان جامع أوصاف الإسلام.

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: "الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم".

(النسائي، البيعة، ٣١، ٤١؛ الدارمي، الرقاق، ٤١

النصيحة...

روي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم".

(النسائي، البيعة، ٣١، ٤١؛ الدارمي، الرقاق، ٤١)

إن كلمة النصيحة الواردة في الحديث الشريف لا تعني الوعظ والتوصية فقط. فيقصد بكلمة النصح التي تأتي بمعنى استخراج العسل من الشمع، يُقصد بها الكلمة والعمل المصفى والمطهر من الحيلة والخداع والكذب. ووفقاً لذلك فإن الدين النصيحة تعني الإخلاص، والصدق، وإرادة الخير.

وقد جاء هذا المعنى واضحاً في الآية الكريمة:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا (صدقوا وأخلصوا) لله وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: ٩١)

فانطلاقاً من هنا يمكن فهم وتفسير الحديث النبوي المتقدم ذكره. وأساساً فإن معنى "الدين النصيحة" يتوافق بشكل تام مع تكملة الحديث:

فالنصيحة لله، تعني إيماناً واعتقاداً سليماً بوحدانية الله تعالى، ونية مخلصة بالعبودية له، وصدقاً في العمل بأوامره ونواهيه.

والنصيحة للرسول، تعني التصديق بنبوته وبما جاء به، والصدق في اتباع أوامره ونواهيه، والإخلاص في طاعته، والتمسك بأهداب سنته، والعمل على نشرها.

والنصيحة للكتاب، تعني الاعتقاد أنه كتاب الله، والعمل بما فيه من أحكام قدر الاستطاعة. وعدم التمييز بين آياته في الإقرار والرد. أي التعامل بصدق مع الكتاب.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين، فتعني طاعتهم في كل ما هو حق وصواب، وتقديم العون لهم، ووعظهم وتذكيرهم بالحق عند الحاجة، وعدم الخروج عليهم. والالتزام بقاعدة "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". أي التعامل معهم بصدق وإخلاص.

أما النصيحة للمسلمين، فتعني إرشادهم إلى ما فيه خير لدينهم ودنياهم، وتعليمهم، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لهم ما يحبه لنفسه، والإحسان إليهم قولاً وعملاً بصدق وإخلاص. وبكل الأحوال فإن صفة "الناصح الأمين" الواردة في القرآن الكريم لا تتحقق إلا من خلال ما ذكرنا آنفاً. وكل نبي بهذا المعنى "ناصح أمين".

فكما يتبين من هذا البيان المقتضب إن الدين والتدين يعني أن يكون الإنسان نقياً، صادقاً، مخلصاً، ومحباً للخير سواء على الصعيد الاعتقادي، أو على الصعيد الاجتماعي.

إن اسم الطريق السائر نحو الله تعالى في المفهوم الإسلامي هو "الصراط المستقيم".

وإن أهم صفة لمن يسلك هذا الطريق بعد الإيمان هو الصدق والاستقامة. ولا حدود لصدق المسلم. فالمسلم يقول الصدق حتى ولو على نفسه، فالصدق يقتضي إظهار الواقعة كما هي. وقول الله تعالى:

﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (فصلت: ٦)

دعوة واضحة للجميع إلى الاستقامة. وتشير هذه الدعوة إلى نتيجة بديهية، وهي أن كل من هو بعيد عن الالتزام بالأوامر قلباً، أو قولاً، أو فعلاً؛ أو مرتكب لأحد النواهي والمحرمات، أي لديه تقصير في التدين فهو بعيد عن الاستقامة. وأما الحل فهو إعلان التوبة، وطلب العفو والمغفرة عن التقصير في العبودية، والعودة إلى عبودية مستقيمة وصادقة.

العبودية...

لقد طلب سفراء قبيلة ثقيف من رسول الله ﷺ عدم المساس بصنمهم اللات، أو على الأقل عدم مطالبتهم بكسر وتحطيم أصنامهم بأيديهم، وإعفائهم من أداء الصلاة. فقال النبي ﷺ:

"أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة، فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه". (ابن هشام، السيرة، ٢، ٥٣٨)

إن هذه الحادثة وبيان النبي ﷺ بشأنها يشير إلى ما يلي:

كما أنه لا خير في دين لا صلاة وتضرع فيه، فإنه كذلك لا خير في تدين مجرد من العبادات والعبودية. ولهذا فإنه ليس في ادعاء من لديه قصور وعيب في مسألة العبادة والإيمان ومخادعته نفسه، ما يدعو إلى أخذ ادعائه على محمل الجد.

فالعمل الواجب القيام به هو تنفيذ أوامر الدين قدر الاستطاعة، واجتناب نواهيه بصورة مطلقة. فمعيار التدين الذي بينه النبي عليه الصلاة والسلام هو:

"فإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم".

إن جواب النبي عليه الصلاة والسلام على رسل ثقيف يدل بشكل واضح لا لبس فيه على أنه لا مكان للأوثان في بلد التوحيد، ولا تفضيل أو ميزة، أو إعفاء لأي جماعة في مسألة أوامر الدين.

وهذا يعني أن التدين الحقيقي يكون بتحصيل فضائل التوحيد، والاستقامة، والنصيحة، والعبودية معاً، والعمل بمقتضياتها في ميادين الحياة.

الصدق في الطلب

هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تحثنا وتشجعنا على السعي لاستحقاق الجنة ونيلها. وقد ورد في سورة آل عمران:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣)

وفي سورة محمد توصف الجنة التي وعد بها المتقون:

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ...﴾ (محمد: ١٥)

أقرأ وتفكر

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام بشأن الجنة:

«قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ثم يقول راوي الحديث أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧؛ البخاري، بدء الخلق، ٨)

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله:

«مسكين ابن آدم، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً. ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً. ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً».

نمط الحياة الذي رسمه الإسلام

دوران أكيزَر

يبين القرآن الكريم بأسلوب بياني رائع، وبعبارة قطعيَّة جليَّةٍ رصينةٍ أنه إنما جاء هدايةً وإرشاداً للبشرية جمعاء

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾ (الإسراء: ٩)

وترد في الكثير من آياته البينات عبارتا "الظلمات" و"النور". مثل:

﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾ (إبراهيم: ١)

وهو إنما يقصد بـ"الظلمات" مستنقع الشرك والكفر؛ ويقصد بـ"النور" الصراط المستقيم، أي الإسلام الطريق الوحيد الذي وضعه الله تعالى للناس كافة.

وفي بعض الآيات يعبر القرآن الكريم عن الإسلام بـ "الصراط المستقيم"، ويبين نمط الحياة الذي يرسمه هذا الإسلام، وطريقة قراءتها، مشبهاً إياه – الإسلام – بالطريق الواسع. إذ إن كلمة الصراط تعني في اللغة الطريق الواسع. فقد شُبه الإسلام في آية:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦)

التي نتلوها مرات عديدة في اليوم ونتضرع بها إلى ربِّنا في الصلوات ليوصلنا إليه، شُبه بالصراط، واستُخدم هذا المشبه به بدلاً منه في الآية المذكورة. وبذلك فقد أكد القرآن الكريم بأسلوبٍ بيانيٍّ بليغ على أن السعة والشمولية التي تحتويها كلمة الصراط هي من أهم خصائص الإسلام. وإذا ما ذهبنا أبعد من ذلك في التفسير اللغوي فيمكن استنباط حقائق على ضوء المعلومات الواردة قبل قليل بشأن معنى هذه الآية، وهذه الحقيقة هي: أن الإسلام نظام إلهي شامل لكل الأزمنة

والأمكنة مثل الطريق الواسع، فهو النظام الذي فيه من التشريعات ما يشمل كافة ميادين الحياة، وهو النظام الذي يحدد للإنسان نمط الحياة، ويضع له المنهج الذي يسير عليه في سائر المجالات. وهذا النظام يحتوي على الجانب المادي والجانب المعنوي على حد سواء. ولا تمييز فيه بين هذين الجانبين، فهو يمتلك تصوراً وجودياً لا يمكن معرفته وفهمه وإدراكه إلا من خلال دلالة وإرشاد الرحمن الرحيم خالق المادة والمعنى. وأما كلمة المستقيم التي جاءت في هذه الآية بجانب الصراط فإنها تعني لغةً المستوي، والمعتدل، والصحيح. وهذه الكلمة صفة الصراط.

إذ ليس كل طريق صحيح ومستو، فلا يوجد إلا طريق صحيح واحد. وإنَّ استخدام كلمة المستقيم يدل على أن هذا الطريق مستو وصحيح دائماً، وليس فيه أدنى قدر من الالتواء والميلان أبداً. أي أن الطريق الوحيد الذي يقود إلى الهدف هو هذا الطريق.

يشير القرآن الكريم إلى أن كافة الطرق والسبل لن توصل الإنسان إلى الهداية والرشاد ما عدا الصراط المستقيم. فعلم التاريخ يثبت لنا أن كافة أنظمة الحياة التي وضعها البشر لأنفسهم بعيداً عن منهج الله تعالى تقود الإنسانية نحو المهالك والمصائب.

وإن الحقيقة التي تكمن خلف هذا الأمر هي محاولة تأليه الإنسانية لنفسها، واختلاق الطواغيت وحمل الناس بالجبر والإكراه على الارتباط بهذه الطواغيت والقبول بها والتسليم لها ضمن نظام أشبه ما يكون بعقيدة إيمانية. وتبين الآية القرآنية هذا الأمر بأجمل صورة، حيث تقول:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ (الأنعام: ١٥٣)

يمكننا القول:

"إن تاريخ الإنسانية هو تأريخ لعلاقة الإنسان بربه، وإثبات ما إن كان قد أقام هذه العلاقة مع ربه أم لا".

وقد كانت هذه الحقيقة دائمة الوجود في تاريخ البشرية على شكل الصراع بين الحق والباطل. فالذين يتذكرون الله تعالى في كافة ميادين ومجالات حياتهم (الذكر)، وينظمون مادياتهم ومعنوياتهم حسب الدين الذي أنزله الله ﷻ هم جنود طريق الحق السعداء؛ وأما الذي اختاروا سبيلاً آخر، وتصوروا ونظموا حياتهم وفق أهوائهم ورغباتهم وشهواتهم بعيداً عن تعاليم الله تعالى فهم الأشقياء على طريق الباطل. وقد ظهر هذا الصراع القائم منذ الإنسان الأول وإلى يومنا هذا، ظهر في كل عصر بأشكال وظروف مختلفة. وذكرت أمثلة ذلك في الكثير من الآيات القرآنية المباركة. فمثلاً نرى هذا الأمر في الصراع الذي حدث بين الشيطان وآدم عليه السلام. فقد عصا الشيطان أمر الله ﷻ، وقدم نفسه، ونسي خالقه وادعى الأفضلية والخيرية، وأظهر جهالته وقلة بصيرته في شكل تصوره **﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾** (الأعراف: ١٢)، وكان هذا أمراً صحيحاً وصواباً في تصوره ونظامه الذي وضعه لنفسه، وآمن بصحته. وإن اعتقاده شكل هذا التقرير الذي خرج به، ومن ثم صار في النهاية عاصياً لأمر خالقه. فأسقط نفسه في أدنى دركات اللعنة، وطُرد من الرحمة الإلهية.

الذين يتذكرون الله تعالى في كافة ميادين ومجالات حياتهم (الذكر)، وينظمون مادياتهم ومعنوياتهم حسب الدين الذي أنزله الله عز وجل هم جنود طريق الحق السعداء؛ وأما الذي اختاروا سبيلاً آخر، وتصوروا ونظموا حياتهم وفق أهوائهم ورغباتهم وشهواتهم بعيداً عن تعاليم الله تعالى فهم الأشقياء على طريق الباطل.

ونجد من بعده سيدنا نوحاً عليه السلام. وقد ذكر القرآن الكريم بصيغ عديدة الصراع المرير الذي خاضه نوح عليه السلام بمفرده مع الزمرة الفاسدة التي جعلت الشرك أساس نظام حياتها، وسرد لنا من مواقفه نماذج الهداية.

ونشاهد في عصرنا الحالي مظهراً مختلفاً للحقيقة ذاتها. ففي يومنا هذا الذي صار فيه العالم مع اكتشاف وسائل التواصل والشبكة العنكبوتية عبارة عن قرية صغيرة ظهرت خلالها وبكل أسف الكثير من العواملُ والعناصر التي تحدد شكل حياتنا وفقاً لآراء مغايرة لتعاليم الإسلام. حيث صار بمتناول كل إنسان أجهزة اتصال متطورة تجاوزت الطبيعة والعادة في تأمين اتصاله مع العالم الخارجي، وصارت بمثابة نوع من المخدرات الحديثة التي تشغل الفرد بمختلف أشكال الأباطيل. فالناس وخاصة الشباب منهم – باستثناء الذين يستخدمونها في أعمال الخير – عندما يضيعون أوقاتهم في العالم الافتراضي من خلال الدخول إلى شبكات التواصل الاجتماعي إنما يبنون جدراناً بينهم وبين خالقهم الذي خلق الحياة ووهبها لهم. وأصبحنا نرى كيف أن الترهات وأشكال الضلال تنتشر باسم الفن والاستعراض حتى في رمضان، وكيف يتم يوماً بعد يوم إفراغ القيم التي تجعل الإنسان إنساناً إفراغها من مضمونها وإبعادها عن جوهرها.

لقد تم القضاء على قيمة المعنى، وأصبح الاستعراض والمراآة هي الهدف، واكتسبت المظاهر المخالفة لروح الإسلام تحت اسم الموضة أهمية كبيرة حتى لدى الفئات المحافظة والمتدينة، وصارت وكأنها من مسائل الاعتقاد.

وهؤلاء أطفالنا في المدارس التي تُعد من أهم مراحل الحياة حساسية وأهمية وخصوبة، يبذلون كل جهدهم وطاقتهم من أجل تحصيل مكانة أو وظيفة تحقق لهم الرفاهية المادية في حياتهم المستقبلية. فالجيل الذي في حالة سباق أصبح يجري من امتحان إلى امتحان، ونتيجة لذلك صار ينظر إلى رفاقه وزملائه وكأنهم منافسوه ومزاحموه. ويمكن التسامح مع هذه الحالة إلى حد معين، ولكن لا بد أن نقول في هذا الشأن: يا أيها الآباء والأمهات المسلمون! هل نولي الأهمية لتطوير المعنويات لدى أبنائنا بنفس الدرجة التي نوليها لتطوير معلوماتهم في الرياضيات؟

هل نهتم بصلاة أبنائنا وبتحبيبها إليهم كما نهتم بالعلامات التي سوف يحصّلونها في الامتحانات؟ ولو أن لدينا آلة لقياس المعنويات فكم درجة سوف نحققها نحن وأبناؤنا؟ وبماذا سوف نجيب إذا ما سألنا ربنا سبحانه وتعالى في الآخرة عن واجب الأبوة والأمومة؟ وكم درجة سوف يحصل عليها أبناؤنا في مواد المعنويات، مثل: الاستقامة، والصدق، والإيثار، والإنفاق، والذكر، ومراقبة النفس؟

يجب أن لا ننسى أبداً أن الحقيقة واحدة. وأن صاحب هذه الحقيقة هو الله تعالى الذي سمى نفسه بالحق. وأن الإسلام ذاك النظام الإلهي الذي أنزله وحياً، وجرى تجسيده في الواقع بسنة رسوله ﷺ هو طريق خروجنا وخلاصنا الوحيد. ولا يكفي أن نسمى بالمسلمين، وإنما يجب علينا أن نبقى ضمن دائرة الإسلام وننظم تصوراتنا المادية والمعنوية في سياق إرادة الله تعالى، ونشكل نمط حياتنا على هذا المنوال. فحياتنا إيماننا، وإيماننا نجاتنا. فنسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان. آمين.

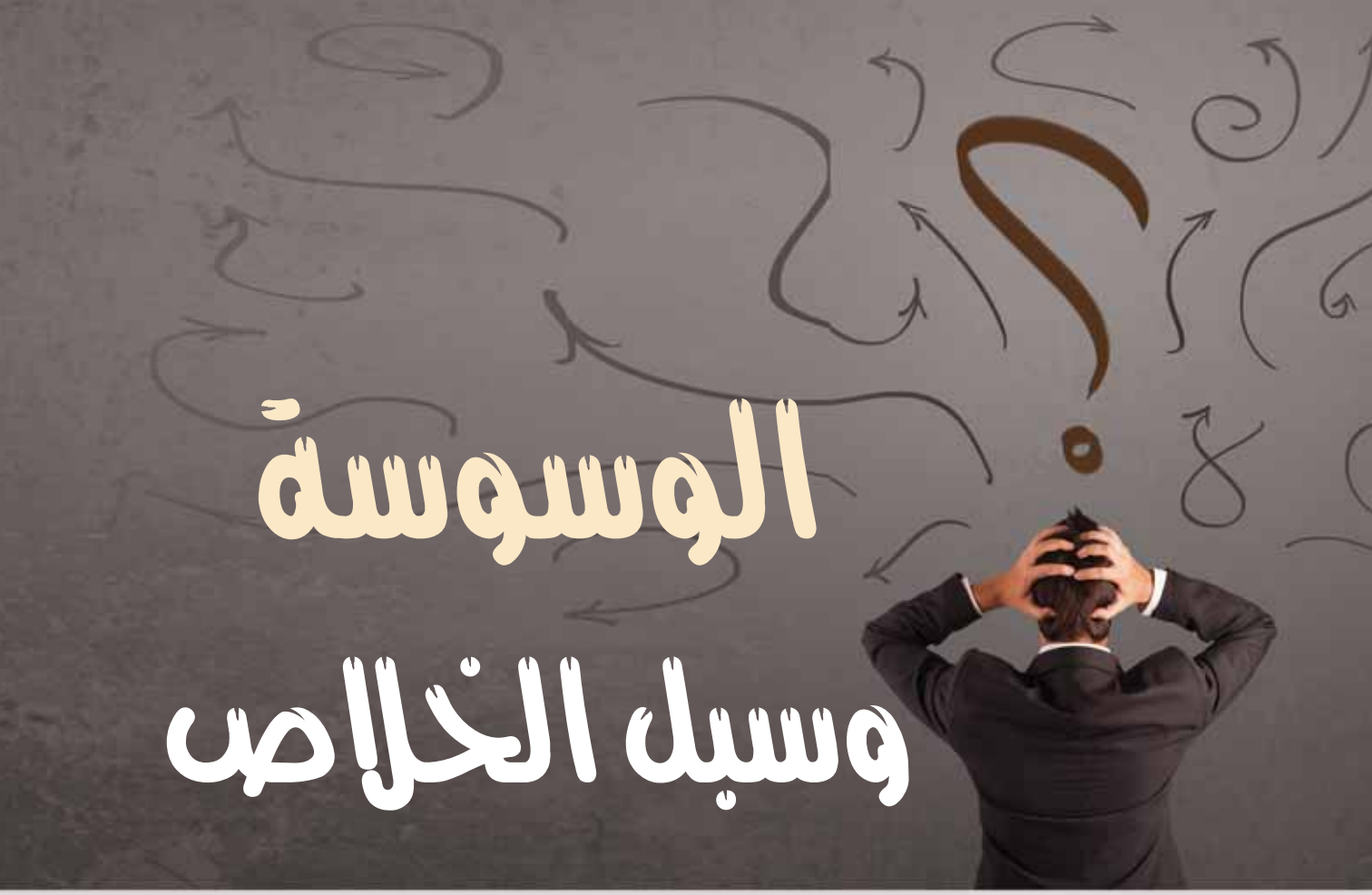

الوسوسة وسبل الخلاص

الدكتور: سليم آرك

الوسوسة تعني في اللغة الشبهة، والشك والتردد، والصوت الخفي، وحديث النفس، وما يرد في صدر الإنسان من خواطر. وهي اصطلاحاً جملة المشاعر والخواطر الشيطانية والأحاسيس التي تدفع الإنسان نحو السيئات، وارتكاب أفعال منافية للدين والأخلاق. حيث إن القرآن الكريم عندما يتحدث عن إغواء الشيطان لآدم وحواء عليهما السلام فإنه يقول:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف:٢٠)

وكما يظهر من الآية المذكورة فإن المصدر الأول للوسوسة هو الشيطان. فقد عمل الشيطان نتيجة الحسد على إغواء الإنسان وتضليله، وإخراجه من الجنة التي لم ينلها هو، وذلك من خلال الوسوسة له. وإلى جانب ذلك فإن هناك مصدراً آخر للوسوسة ألا وهي نفس الإنسان. وقد تناول القرآن الكريم هذه المسألة بالقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ...﴾ (ق: ١٦)

فالوسوسة هنا هي ما يرد في صدر الإنسان من مشاعر وخواطر خفية وسيئة. وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام أن الإنسان غير مسؤول عما يرد في قلبه ونفسه من خواطر وأفكار لا إرادية ما دام أنها بقيت مجرد أفكار ولم تحول إلى أفعال أو أقوال، حيث قال:

"إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم يتكلموا، أو يعملوا به" (مسلم، الإيمان، ٢٠١)

وقد جاء ناس من الصحابة إلى النبي عليه الصلاة والسلام وشكوا إليه ما يرد في قلوبهم وأذهانهم من خواطر وأفكار إن نطقوا بها وأظهروها تحولت إلى ذنوب يُسألون عنها، فأخبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام أنَّها من وساوس الشيطان، وأنها دليل على صريح إيمانهم وصدقه. إذاً فالتفكير بالأمور السيئة التي تعدُّ ذنوباً ومعاصي لا يُعد ذنباً، وإنما الذنب هو فعل ما فكر به الإنسان. فمثل هذه الأفكار والخواطر تَرِد من وساوس الشيطان، لا من اعتقاد قلبي. فالوسواس هو محاولة الشيطان إشغال قلب الإنسان، وإلقاء جملة من الصور والمناظر على مرآة خياله. وهذا إحدى ألاعيب ومكائد الشيطان التي يحاول بها في هذه الدنيا تضليل الإنسان، وخاصة الإنسان المؤمن. لأن الشيطان يستعمل سهم "الوسوسة" الذي يعبر عن عجزه تجاه المؤمن الذي لم يفلح في تضليله والإيقاع به في الكفر. إذ إن الوسوسة لا تنطبق على الكافر. فكفر الكافر ليس وسوسة، وإنما عناد، وإصرار، ومقصود.

لا يستطيع الشيطان الدخول إلى قلب المؤمن التام الإيمان، والذي يؤدي عباداته بحقها، ولا يستطيع دفعه إلى الكفر والضلال. إلا أنه يحاول من خلال الوساوس تعكير صفو قلبه، وإفساد عباداته. وعلى ذلك فينبغي عدم إيلاء أهمية للوساوس التي تشكك الإنسان بعبادته، مثل التشكيك بعدد ركعات الصلاة. فإذا وقعت الوسوسة لأول مرة، فيمكن إعادة الوضوء أو الصلاة المشكوك بها. وأما إن كان الأمر متكرراً ودائماً، فحينئذٍ ينبغي عدم الالتفات إلى الوسواس، بل يعتبر العضو المشكوك بغسله في الوضوء مغسولاً، وتعتبر الصلاة كاملة الأركان والركعات.(انظر: الموصلي، الاختيار، ١، ١١)

لا يستطيع الشيطان الدخول إلى قلب المؤمن التام الإيمان، والذي يؤدي عباداته بحقها، ولا يستطيع دفعه إلى الكفر والضلال. إلا أنه يحاول من خلال الوساوس تعكير صفو قلبه، وإفساد عباداته. وعلى ذلك فينبغي عدم إيلاء أهمية للوساوس التي تشكك الإنسان بعبادته، مثل التشكيك بعدد ركعات الصلاة. فإذا وقعت الوسوسة لأول مرة، فيمكن إعادة الوضوء أو الصلاة المشكوك بها.

وورد أن جبرائيل عليه السلام لما علَّم النبي عليه الصلاة والسلام الوضوء أمره أن ينضح داخلة إزاره بالماء بعد قضاء التبول سداً لباب الشك والوسواس. (انظر: ابن ماجه، الطهارة، ٥٧) فالشيطان يعرف جوهر الإيمان، وكنز العبادة لدى المؤمن، ويعلم عشقه للصلاة ولخدمة الدين فهو يتعرض له في هذه الأمور، وخاصة الوضوء، والصلاة، فمصدر كل الشكوك والوساوس بشأنهما هو الشيطان. وقد ورد أنه إذا رُفع الأذان ونودي للصلاة أدبر الشيطان وهرب حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل ليوسوس للمصلي، حتى أنه يخطر بين المرء ونفسه، ويقول: اذكر كذا، اذكر كذا حتى يظل الرجل لا يدري كم ركعة صلى. (انظر: البخاري، الأذان، ٤) فالشيطان كما ذكرنا يتسلط على المرء حتى في الصلاة.

وأشار النبي ﷺ إلى قوة إيمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وشدته على الشيطان، وخوف الشيطان منه بقوله ﷺ:

"والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً – طريقاً – إلا سلك فجاً غير فجك" (مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢)

"إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر" (الترمذي، المناقب، ١٨.)

وبناء على ذلك ينبغي أن يكون المؤمن دائم الحيطة والحذر من مكائد الشيطان، ووساوسه وإغوائه.

طرق الحماية من الوسوسة

قال الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (الأعراف:٢٠٠)

وقال رسول الله ﷺ:

"الشيطان يلتقم قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس عنده" (انظر: السيوطي، الفتح الكبير، ٢، ١٨٥)

وانطلاقاً من ذلك ينبغي على الإنسان إذا أراد أن يأمن وساوس الشيطان أن لا يهمل الصلاة مع الجماعة في الخطوة الأولى والتي تُعد ذكراً علنياً، وأن لا يقطع صلته بالقرآن الكريم على جهة العموم وسورتي "الناس" و"الفلق" على جعة الخصوص. إلا أن الشيطان غير قادر على الدخول إلى قلب المؤمن العامر بالإيمان، والذي يؤدي عباداته بحقها، ولا يستطيع دفعه إلى الكفر. فالشيطان لا يقدر أبداً أن يحل في قلب المؤمن محل معرفة الله تعالى ومحبته، ومحل عقيدة اتباع النبي عليه الصلاة والسلام والاقتداء به.

وقد أوصانا النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً:

"يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك، فليستعذ بالله ولينته" (مسلم، الإيمان، ٢١٤)

وهذا يدل على أن الشيطان غير قادر على إيذاء المؤمن والإضرار به من ناحية العقيدة. فعلينا كلما تعرضنا لوساوس الشيطان أن نمتن ارتباطنا مع الله ورسوله، ونعزز معنوياتنا. وأحياناً تكون وسوسة شياطين الإنس والجن على الشكل الآتي: "إن كلاً من الماضي والمستقبل عبارة عن أسطورة وخيال، وإنك لن تعود إلى هذه الدنيا مرة أخرى. فالماضي قد ولى وأدبر، والمستقبل مجهول، فانظر إلى حاضرك، وأقبل على نعم الدنيا وتمتع بها ما استطعت!". وأسلم طريقة في هذه الأحوال هي الابتعاد عن مثل هذه الأجواء والأوساط.

والنتيجة؛ أن المطلوب من الإنسان ليس التوقف على الوسوسة، وإنما السير عكس اتجاهها تماماً. وإن من أفضل الوسائل التي من شأنها إزالة الشبهة ودفع الوسوسة هو تجاهلها، والمضي بالعمل حتى وإن كان ناقصاً، وافتراض أنه متوافق مع أحد المذاهب الفقهية. مثلاً يعتبر المذهب الشافعي أن النية والترتيب من فرائض الوضوء، بينما المذهب الحنفي يعتبرهما من سننه. ومن ثم فإذا ما توضأ أحد أتباع المذهب الشافعي ثم شك هل نوى الوضوء أم لا، فعليه الجزم بصحة وضوئه بناء على المذهب الحنفي وعدم الالتفاف إلى الشك والوسواس الذي داخله، باعتبار أن النية من سنن الوضوء في هذا المذهب، ولا يؤثر فقدانها على صحة الوضوء. ولا شك أن هذا الأمر يتطلب العلم. وقد أشار النبي ﷺ إلى أن العلم والمعرفة درع واق من الشيطان، وذلك بقوله:

"فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد" (ابن ماجه، المقدمة، ١٧)

وانطلاقاً من ذلك فإن تأثير مكائد الشيطان ووساوسه يكون أكبر على المحرومين من علوم القرآن والسنة. وأما من يتفيؤون في ظلال محاسن الإسلام وأحكامه، وينهلون من روحانيته فلا تضرهم وساوس الشيطان أبداً.

إني رأيت الموت

الأستاذ: آدم سراج

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...

إني رأيتُ الموت! فهل رأيتَه أنت أيضاً؟

أقول إني رأيت الموت بذاته، ولا أعني الأموات فحسب! فماذا عندك؟ هل رأيت البرودة التي في عملية الموت، بل هل رأيت جمال الموت؟

إني لا أقصد الميت أو عملية الموت؛ وإنما أقصد الموت بذاته بلا شكّ؟ فهل رأيت الموت يوماً؟

لقد رأيتُ، لقد رأيتُ الموت!

كانت عملية الموت مرعبة، إلا أن الموت كان بغاية الجمال! كانت عملية باردة جداً كالثلج! إلا أن الموت كان حاراً جداً! كانت عملية الموت تُجمد ما حولها؛ ولكن الموت كان يغلي كالمرجل!

أقول لقد رأيت الموت!

رأيت الموت عندما كنت أنظر إلى رجل على وشك الموت، رأيته لحظة السكرات! رأيته أولاً في تقاسيم وجه المريض! ثم رأيته في وجوه أهل المريض! وشعرت قبل كل شيءٍ بحضور ملك الموت واستعداده في غرفة المريض!

رأيت النظرة الأخيرة الثاقبة لدى المريض وهو يكاد يفتح عينيه دون حراك وكأنه يقول: "أستودعكم الله".

رأيت كلمة الشهادة وجمالها في النفس الأخير!

عندما رأيت عملية الموت في الميت تجاوزتها ورأيت الموت ذاته! ولما رأيت الموت، نسيت عملية الموت وتعلقت بالموت!

كانت عملية الموت باردة، إلا أن الموت كان حاراً! كانت عملية الموت تُجمد، إلا أن الموت كان يحرق ويكوي!

لقد رأيت الموت، عندما كان الميت يُغسل! رأيت الموت عندما كان الميت يُكفن! رأيت الموت عندما كان الميت يُشيع من داره!

رأيت الموت في صرخات الذين يظنون أنهم أحياء!

كان الميت يتجه إلى النشور!

رأيت الموت الحقيقي في أصحاب الصرخات بينما كان الموت قد قُتل وفني في الميت وهو يذهب إلى الحياة الحقيقية بكل ما للكلمة من معنى!

إني رأيت الموت؛ رأيته في اللحد، في حفرة الانتظار المظلمة، العميقة الصامتة.

إني رأيت الموت؛ رأيته عندما كان الميت المتجه إلى الحياة يُنزل إلى قبره!

إني رأيت الموت؛ رأيته بينما كان الميت يُوضع في لحده.

إني رأيت الموت؛ رأيته في حثو الأموات الحقيقيين للتراب على الميت الذاهب إلى الحياة!

إني رأيت الموت؛ رأيته على وجوه الأموات الحقيقيين الذي تركهم خلفه الميت الذاهب إلى الحياة عبر رحلة الموت!

إني رأيت الموت؛ رأيته في هذا العنوان: حي المقبرة، شارع الأموات، قصر الأحياء!

أقول لكم إني رأيت الموت، ألا تفهمون قولي؟ أم أنكم تفهمون؟

أدركت بالموت أن الموت ليس عملية الموت. رأيت أن الموت تغيير للمكان. أدركت أن الموت هو مفارقة الأموات الحقيقيين، والالتقاء بالخالدين!

عرفت أن الموت لقاء بالحبيب!

رأيت أن الموت عبارة عن هجرة بعلم اليقين، وحق اليقين، وفي النهاية بعين اليقين! أقول لكم إني رأيته، وأدركته وعايشته!واحترقت لعدم استعدادنا للهجرة والرحيل. احترقت لخروجنا في الرحلة الأبدية دون استعداد. احترقت لأننا لم ندرك الموت في الموت!

احترقت في ألسنة لهب سر "موتوا قبل أن تموتوا!".

واحترقت بشرر التحذير القائل:

"حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا!".

احترقت لعدم تفكيرنا بالاحتراق. احترقت لأننا صرنا حطباً للنار!

أقول لكم إني رأيته، رأيت الموت!

ثم لمع في أعماق قلبي نور، سطع فيها ضوء، فانقدحت فيها شعلة! وسرت في بدني قشعريرة من الخوف، والرجاء.

ورأيت نفسي فجأة أمام حقيقة "كل نفس ذائقة الموت".

فالموت كان تذوق الحياة! الموت كان تجاوزاً لعملية الموت! الموت كان عودة إلى الحياة الحقيقية.

الموت ليس الفناء؛ وإنما عبور من الفناء إلى الوجود.

لقد رأيت الموت؛ لقد رأيت النشور بالموت! رأيت من خلال الموت العبور إلى الحياة الأبدية. ووصلت إلى سر وجوب الاستعداد للموت كل لحظة، بدل البكاء والحزن على الميت.

وحسب حقيقة أننا لا نستطيع قتل الموت أدركت مرة أخرى ضرورة الاستعداد للحياة والنشور بالموت.

إني رأيت الموت! فهل رأيتموه أنتم أيضاً؟

عن أبي قتادة ﷺ قال:
كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ
إذ طلعت جنازة،
فقال رسول الله ﷺ :
" مستريح أو مستراح منه "
فقالوا: يا رسول الله ما المستريح
والمستراح منه؟ فقال:
"العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا
وأذاها إلى رحمة الله،
والعبد الفاجر يستريح منه
العباد والبلاد، والشجر
والدواب "

الإنصاف من النفس

الأستاذ: علي رضا تمّل

عن الفضل بن عباس قال: أتاني رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو يُوعَك وعكاً شديداً، قد عصّب رأسه، فقال: خذ بيدي يا فضل! فأخذت بيده، حتى قعد على المنبر، ثم قال: ناد في الناس يا فضل! فناديت: الصلاة جامعة، فاجتمعوا. فقام رسول الله عليه الصلاة والسلام خطيباً، فقال:

"أما بعد. أيها الناس! إنه يوشك ان أخرج من بين أظهركم، ولن تروني بعد هذا المقام فيكم، وقد كنت أرى أن غيره غير مغنٍ عني حتى أقومه فيكم، ألا فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستعد، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستعد، ولا يقولن قائل: أخاف الشحناء من قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام، ألا وإن الشحناء ليست من شأني، ولا من خلقي. وإن من أحبكم إلي من أخذ حقاً، إن كان له عليّ، وحلّلني، فلقيت الله عز وجل وليس لأحد عندي مظلمة. فقام رجل فقال: يا رسول الله لي عندك ثلاثة دراهم. فقال رسول الله: أما أنا فلا أكذّب قائلاً، ولا مستحلفه على يمين، فيم كانت لك عندي؟ قال الرجل: أما تذكر أنه مرّ بك سائل فأمرتني، فأعطيته ثلاثة دراهم؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: أعطه يا فضل. فأعطاه الفضل ثم أمره فجلس. ثم عاد رسول الله عليه الصلاة والسلام في مقالته الأولى، ثم قال:

أيها الناس من كان عنده من الغلول شيءٌ فليرده. فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله. قال رسول الله ﷺ: ولم غللتها؟ قال الرجل: كنت إليها محتاجاً. فقال رسول الله: خذها منه يا فضل. فأخذها الفضل منه.

ثم عاد رسول الله ﷺ في مقالته الأولى وقال:

يا أيها الناس من أحس من نفسه شيئاً فليقم، أدعو الله عز ذكره له. فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله إني لمنافق وإني لكذوب، وإني لنؤوم.

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: ويحك أيها الرجل، لقد سترك الله تعالى، لو سترت على نفسك!. فقال رسول الله ﷺ: مه يا ابن الخطاب، فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً، وأذهب عنه النوم إذا شاء، ثم قال رسول الله ﷺ: عمر معي، وأنا مع عمر، والحق بعدي مع عمر.

(البيهقي، فضائل النبوة، ٧/ ١٨٠- ١٨٩، بيروت ١٩٨٥)

ويروي لنا أبو سعيد مثالاً آخر على رعاية النبي عليه الصلاة والسلام للحقوق وحرصه عليها، واحترامها، فيقول:

كان رجل من المهاجرين، وكان ضعيفاً، وكان له حاجة إلي رسول الله عليه الصلاة والسلام، فأراد أن يلقاه على خلاء فيسأل حاجته. وكان رسول الله ﷺ معسكراً بالبطحاء، وكان يجيء من الليل، فيطوف البيت، حتى إذا كان في وجه السّحر صلّى بهم صلاة الغداة. فحبسه الطّواف ذات ليلة حتى أصبح، فلما استوى على راحلته عرض له الرجل، فأخذ بخطام ناقته، فقال: يا رسول الله، لي إليك حاجة، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: إنك ستدرك حاجتك. فأبى الرجل. فلما خشي رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يحبسه خفقه بالسوط، ثم مضى، فصلى بهم صلاة الغداة. فلما انفتل أقبل بوجهه إلى القوم، وكان إذا فعل ذلك عرفوا أنه قد حدث أمر، فاجتمع القوم حوله، فقال:

أين الرجل الذي جلدت آنفاً؟ فأعادها رسول الله عليه الصلاة والسلام، فجعل الرجل يقول: أعوذ بالله، ثم برسول الله، وجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول:

"ادنه ادنه"، حتى دنا منه، فجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام بين يديه، وناوله السوط، فقال: خذ بمجلدك فاقتص. فقال الرجل: أعوذ بالله أن أجلد نبيه. فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: إلا أن تعفو! . فألقى الرجل السوط، وقال: قد عفوت يا رسول الله. ثم قال رسول الله ﷺ:

"أيها الناس اتقوا الله، فو الله لا يظلم مؤمن مؤمنا إلا انتقم الله تعالى منه يوم القيامة" (محمد بن يوسف الصالحي، سبل الهدى، ٧/ ٦٩)

العدالة تعني المساواة. ولا تتحقق إلا إذا طبقت على الجميع بشكل متساو. ويُعد الميزان رمز العدالة، فعندما يضبط الميزان حسب وضع كل إنسان ينتج عنه الظلم. وعاقبة الظلم وخيمة. وكما قال ضياء باشا: إذا رأيت أن سارق بضعة قروش يحكم عليه بالأشغال الشاقة، وسارق الملايين يحمل على الأكتاف فاعلم أن المجتمع منهار.

رغم أن أكثر المسائل التي يجري تناولها والحديث عنها في عصرنا الحالي هي مسألة حقوق الإنسان، ورغم تأسيس محكمة حقوق الإنسان الأوروبية، ووجود الكثير من اللجان والهيئات والمؤسسات الدولية والإقليمية والمحلية التي تهتم بهذه المسألة فإن أكثر الحقوق التي تتعرض للخرق والاعتداء والإخلال هي حقوق الإنسان. ويأتي على رأس قائمة الذين لا يعترفون بالحق والحقوق الشخصياتُ والدول ذات القوة والنفوذ. فهي تستخدم القوة والإمكانات التي تمتلكها في استعمار الآخرين وسحقهم واضطهادهم والهيمنة على ممتلكاتهم. فأكثر الفئات التي تحتاج إلى الحماية، ورعاية حقوقها وتستحقها بجدارة هي الفئات الضعيفة. إذ إن الأقوياء قادرون بطبيعة الحال على حماية أنفسهم بأنفسهم.

ومن ثم فإن الأمر المهم هو حفظ حقوق الضعفاء والعاجزين وحمايتها. وأول من يجب عليه التحرك في هذا المجال والاهتمام به هم الحكام ومن بيدهم زمام أمور الناس. وإذا ما ارتكب الحكام المظالم وأهدروا

الحقوق فإنهم بفعلهم هذا يفتحون الباب أمام غيرهم ويتيحون لهم المجال للتجرؤ على حقوق الآخرين وهضمها. فعدالة الحكام تؤدي إلى التزام الآخرين بالعدالة أيضاً. والعكس بالعكس. إذ لم يأت المثل المشهور:

"السمكة تفسد من رأسها" عبثاً.

فعندما أمر النبي عليه الصلاة والسلام وهو القدوة والمثل الأعلى للإنسانية بأجمعها، عندما أمر بالعدالة بدأ بتطبيقها على نفسه، واتبعه في ذلك الخلفاء الراشدون من بعده، وصاروا نماذج ومثلاً في مسألة رعاية حقوق الناس. وهناك ممارسات وأمثلة لا تُعد ولا تُحصى في هذا المجال.

روت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت يوم فتح مكة، وكرهوا أن يُقام عليها الحد، وتدارسوا فيما بينهم حول من يكلم فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام. فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله عليه الصلاة والسلام. فجاء أسامة بالمرأة إلى رسول الله وكلمه فيها وشفع لها عنده. فغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام وتغير لونه، وقال:

أتشفع في حد من حدود الله؟

فقال أسامة نادماً: استغفر لي يا رسول الله. ثم قام رسول الله عليه الصلاة والسلام فحمد وأثنى عليه ثم قال: إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يداها.

العدالة تعني المساواة. ولا تتحقق إلا إذا طبقت على الجميع بشكل متساوٍ. ويُعد الميزان رمز العدالة، فعندما يضبط الميزان حسب وضع كل إنسان ينتج عنه الظلم. وعاقبة الظلم وخيمة. وكما قال ضياء باشا: إذا رأيت أن سارق بضعة قروش يحكم عليه بالأشغال الشاقة، وسارق الملايين يحمل على الأكتاف فاعلم أن المجتمع منهار. فإذا جعلت القوانين كما قال بلزاك مثل خيوط العنكبوت يخرقها الذباب الكبير ويعلق بها الصغير. فإن الذباب في نهاية المطاف سوف يعاني أيضاً من المصاعب وستقع في المشاكل. فإذا لم يطبق الأقوياء القوانين ولم يلتزموا بها فكيف سيجدون حلولاً للمشكلات التي تحدث فيما بينهم؟ فالعدالة ضرورية للجميع. فكل إنسان بحاجة إلى الحماية في مرحلة أو نقطة ما. فمن الخطأ الفادح الثقة بالذات واعتبار الآخرين ضعفاء. فكما أن الفيل قوي، فإن للبعوضة قوة أيضاً. ونجد في كثير من الأحيان أن الأقوياء من الناس يقفون عاجزين أمام بعوضة صغيرة.

عندما أمر النبي ﷺ وهو القدوة والمثل الأعلى للإنسانية بأجمعها، عندما أمر بالعدالة بدأ بتطبيقها على نفسه، واتبعه في ذلك الخلفاء الراشدون من بعده، وصاروا نماذج ومثلاً في مسألة رعاية حقوق الناس.

إن القوة الهوجاء وغير الخاضعة للسيطرة ظالمة، وتشكل خطراً على صاحبها.

وإن الحق والعدالة فوق كل أشكال القوة والسلطة. فالأصل هو قوة الحق، وليس حق القوة. فقد قال أبو بكر الصديق في أول خطبة له عندما بويع خليفة للمسلمين: الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله.

ومن المواقف العظماء العظيمة أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لما استخلف على المسلمين أصبح في اليوم الثاني غادياً

إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، وكان رضي الله عنه تاجراً. فلقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ فقال أبو بكر: السوق. فقال عمر: وماذا تصنع فيها وقد وُليت أمر المسلمين؟ قال أبو بكر: فمن أين أطعم عيالي؟ فإن أهملت عيالي أهملت المسلمين جميعاً. فطلب منه عمر رضي الله عنه الذهاب إلى المسجد للتباحث معه في الأمر.

إذ إنَّه من الضروري أن يتفرغ أبو بكر لشؤون الأمة ويرعى مصالحهم. فاجتمع في المسجد أبو بكر وعمر، ومسؤول بيت المال أبو عبيدة، وكبار الصحابة. وعرض عمر ﷺ أن يُفرض لأبي بكر مرتب من بيت المال يكفيه ويكفي عياله، وقوبل عرضه بالقبول.

ويمكن تقديم أمثلة كثيرة عن حساسية الخلفاء حول هذه المسألة. إلا أن الأمر المهم هو أن يصبح الحكام ومن هم في مواقع المسؤولية وإدارة شؤون الناس قدوة ومثلاً لغيرهم في رعاية الحقوق وحمايتها.

ومن الأمثلة التي تحمل العبرة وتستدعي التأمُّل والاقتداء بها موقف علي بن أبي طالب ﷺ من علي بن أبي رافع مسؤول المال. حيث كانت ابنة أمير المؤمنين زينب قد طلبت من أبي رافع أن يعيرها عقد لؤلؤ من بيت المال لتتزين به في أيام العيد الثلاثة، ولبى أبو رافع طلبها وأعارها العقد، ولما بلغ الأمر علياً ﷺ غضب من أبي رافع وقال له: أتنجيني من عذاب الله يوم القيامة، وتحمل عني ذنوبي؟ وكذلك طلب عمر بن عبد العزيز من امرأته أن تعيد السوار الذي في يدها إلى بيت مال المسلمين، وإلا فالفراق بينهما. فهذه المواقف أمثالٌ وأسسٌ والاقتداء بها يسمو بالمجتمع ويحقق فيه الأمن والسلام والاستقرار والطمأنينة. وأما الأفعال والمواقف المجحفة والبعيدة عن العدالة فتفتح الباب أمام انهيار المجتمع وقيمه. لذا عُدت العدالة أساس الملك.

النفس اللوامة

يقول المولى سبحانه في الآية الكريمة: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} (القيامة، ٢)

هذا الاسم «اللوامة» ليس مجرد كلمة ينطقها اللسان؛ إنما هو فعل وشعور تدور رحاه في الجنان ليؤدي إلى النتيجة المطلوبة، وهو عبور الحد الفاصل والدقيق بين «النفس الأمارة»، و «النفس اللوامة»، وإلا منعك الكبر من لوم نفسك لومًا حقيقيًا، فبقيت تحت حكم النفس الأمارة. ويقول المولى سبحانه:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} (ق، ١٦)

لذا؛ يجب على الإنسان أن يكون شديد الحيطة والحذر من وساوس هذه النفس ومداخلها، وألا يأمن جانبها، وألا يتهاون في مراقبة أفعالها، فهي تُفسد من حيث تُظهر الإصلاح، فتراها تُظهر التواضع المصطنع أحيانا؛ لأنها تريده، وتحب أن تُحمد عليه، فقد أصابها الرياء، وفارقها الإخلاص، وانزوت فطرتها، فتوارى «التواضع»، وجاء «الفخر بالتواضع». ويستطيع المرء أن ينجو من هذه الوساوس، ويغلق أمام وساوس النفس تلك المداخل إذا هو أخضع نفسه للتربية المعنوية، وآنسها بصحبة الصالحين، ومتابعة المرشدين، عندها يتحقق الثبات على التوبة، والتطهر من خبائث الأفعال.

الذي امتحن بتبوك

كعب بن مالك رضي الله عنه

مصطفى أريش

الصحابي كعب بن مالك رضي الله عنه هو أحد شعراء رسول الله ﷺ الثلاثة الكبار المشاهير...

وهو الصحابي الذي تعرض لابتلاءٍ وامتحانٍ شديدٍ على يد رسول الله ﷺ لعدم اشتراكه في غزوة تبوك، وقاطعه الصحابة الكرام برهةً من الزمن!..

وهو السعيد الذي عفا الله تعالى عنه وغفر له لأنه صَدَق في كلامه، ولم يبرِّرْ تخلفه عن غزوة تبوك باختلاق الأعذار، ومن ثم صار أهلاً للبشارة الإلهية لإخلاصه وصدق توبته!..

ولد كعب رضي الله عنه في يثرب سنة ٥٩٨ ميلادية. وهو من الخزرج من بني سلمة. وأبوه مالك الذي كان أحد زعماء يثرب ووجهائها، كما كان شاعراً له شأن كبير في الحرب التي وقعت بين الأوس والخزرج واستمرت لسنوات طويلة قبل ظهور الإسلام.

كان كعب رضي الله عنه الابن الوحيد لأبيه. وكان أبوه مهتمًّا بتربيته وتعليمه اهتماماً بالغاً، فعلمه القراءة والكتابة. وعُرِف بشعره الذي قاله في الحروب والمعارك التي جرت بين الأوس والخزرج. وقد شرَّفه الله تعالى بالإسلام في المدينة قبل الهجرة. وها هو يتحدث بنفسه عن دخوله الإسلام فيقول:

خرجنا من المدينة في حجاج قومنا من المشركين نقصد الكعبة، ومعنا البراء بن معرور، سيدنا وكبيرنا حتى قدمنا مكة. فقال لي البراء: يا ابن أخي، انطلق بنا إلى النبي ﷺ، فخرجنا نسأل عن النبي ﷺ، وكنا لا نعرفه، ولم نره قبل ذلك. فلقينا رجلاً من أهل مكة بالأبطح. فسألناه عن النبي ﷺ، فقال: اذهبا إلى المسجد الحرام، فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع عمه العباس. وقد كنا نعرفه، فقد كان تاجراً يختلف إلينا بالتجارة. فدخلنا المسجد فإذا

العباس جالس، والنبي ﷺ جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا. فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ فقال العباس: نعم؛ هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: الشاعر؟ قال العباس: نعم.

وقد سر كعب بن مالك بهذه الالتفاتة الكريمة من رسول الله ﷺ. فدخل نور الإسلام في قلبه، ونطق بالشهادة وتشرف بالإسلام. ويقول كعب: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ ذلك.

وبعد بيعة العقبة عاد كعب ﷺ إلى المدينة، وأخذ يدعو قومه إلى الإسلام. وكان يرى كعب أن بيعة العقبة الثانية أهم من غزوة بدر. وبعد الهجرة رسول الله ﷺ بينه وبين طلحة بن عبيد الله، أو بينه وبين الزبير بن العوام ﷺ .

شهد كعب ﷺ مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها ما عدا غزوتي بدر وتبوك. وأبدى بطولة وشجاعة كبيرة في أُحُد. وأصيب بسبعة عشر جرحاً في جسده.

ويتحدث بنفسه عن حادثة عرضت له ذلك اليوم فيقول: كنت فيمن خرج من المسلمين، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت، فإذا رجل من المشركين، جمع اللأمة - أي السلاح- يجوز المسلمين - أي يمر بينهم- ولا يدع جريحاً إلا أجهز عليه، وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر النعم. وإذا رجل من المسلمين ينتظره، وعليه لأمته - سلاحه -، فضرب المسلمُ الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة.

وفي غزوة أحد أشيع خبر مقتل رسول الله ﷺ. فكان كعب ﷺ أول من عرف رسول الله، فنادى من شدة فرحه بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ حيٌّ لم يقتل. فأشار إليه رسول الله ﷺ أن أنصت.

وقد مر كعب ﷺ بامتحان صعب في غزوة تبوك. فهو لم يشترك في هذه الغزوة دون أي عذر. إلا أنه أصبح مظهراً لعفو الله تعالى ومغفرته بسبب صدقه وإخلاصه.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

وأصبحت هذه الحادثة درساً وعبرة للأمة. وزادت في شهرة كعب ومعرفته بين الناس.

وهذه الحادثة حسب الرواية الواردة على لسانه في كل كتب الحديث تقريباً هي كما يرويها كعب بنفسه حيث يقول:

خرج رسول الله ﷺ ومعه المسلمون في غزوة تبوك، ومكثت خلفهم ليس حولي إلا المنافقون أو الضعفاء. وأحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموساً عليه بالنفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. وأنا رجل قادر وذو مال. وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكاً، فقال: وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه، ونظره في عطفه - أي كبره وإعجابه بنفسه-، فقال معاذ بن جبل ﷺ: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح النبي ﷺ قادماً. فجئته فلما سلمت عليه تبسَّمَ تَبَسُّمَ المغضب، ثم قال: تعال. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه. فقال لي: ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟. فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديثَ صدْقٍ، تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

وكان قد جاء إلى رسول الله ﷺ المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكّل سرائرهم إلى الله. فقال رسول الله ﷺ:

"أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك".

فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدراً، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا -نحن الثلاثة- من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا، فكنت أشبّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني. حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلَمُني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فنشدته فسكت، فعدت فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم.

ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشأم ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه:

أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. عدو يريد أن يستغل ما بين الإخوة من جفاء فيدخل بينهم، ويفسد ودهم. فتيممت به التنور فسجرته بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر!. فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج.

وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ، فكسوته إياهما، ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً، يهنوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس، فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال: رسول الله ﷺ، وهو يبرق وجهه من السرور:

أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك.

قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: لا، بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، ثم قرأ قول الله تعالى:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٧- ١١٩)

فلما جلست بين يديه ﷺ قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله! قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً، ما بقيت. (البخاري، الزكاة، ١٨، المغازي، ٧٩؛ مسلم، التوبة، ٥٣)

وروى كعب ﷺ ما يقارب ثمانين حديثاً.

وتوفي كعب بن مالك ﷺ في عهد معاوية سنة ٥٠ للهجرة، وله من العمر ٧٧ عاماً.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا نصيباً من صدق كعب بن مالك وإخلاصه وصبره، ويجعله لنا شفيعاً. آمين.

مكانة الأب في عالم الطفل

عائشة باي

تتمتع الأم بأهمية أكبر من الأب بالنسبة للطفل خلال الأشهر الأولى، وذلك لعدة أسباب مثل الرعاية، والتغذية وغيرها. إلا أنه مع مرور الوقت وتقدم عمر الطفل يكتسب وجود الأب أهميته أيضاً. وإنَّ لِليل أهميةً مختلفةً بالنسبة للطفل الذي يقضي معظم أوقاته مع أمه. فعندما يحِلُّ المساء يأتي إلى المنزل شخص يحبه بقدر ما تحبُّه أمه وهو يحبه. فيبدي معه سلوكاً وتصرفاً مختلفاً، ويلعب معه ألعاباً مختلفة، ويعامله بلمسات مختلفة، وله نبرة صوت مختلفة. إنه لا يؤذيه، وإنما يأخذه في حضنه، ويحمله على كتفه ويجوب به أطراف المنزل، ويلاطفه بعبارات جميلة مثل: "يا بطل، يا سبع، أيها الملاك، أيها الأمير". وهو يولي للطفل قيمة وأهمية، ويقضي معه وقتاً. إن الطفل يحب الأب بشكل مختلف ومستقل. لذا فإن كلًّا من الأم والأب شخصان ضروريان بالنسبة له ولا بد منهما. فهو بجانب الأب يشعر بالأمان والثقة ويبدو وكأنه يتحدى كل من حوله. فأحياناً كثيرة نسمع الطفل يقول لغيره "سوف أشكوك إلى أبي"، فهو يعتقد أو يؤمن أنَّ أباه قوي للغاية، وشجاع لا يخشى أح داً أبداً.وعندما نفكر بالجانب التربوي والانضباطي فأول ما يخطر في بالنا هو الأب. فيجب أن يكون وجود الأب من أجل تحقيق تنمية نفسية صحية وسليمة للطفل مطلعاً على مبادئ وقواعد الصحة النفسية، ويكون أكثر تفهماً لسوكه، ولينا في تعامله معه. فلا ينتظر من الطفل تنفيذ ما يقوله له بالمعاندة والتشنج. فليس من الصواب التعامل مع الطفل على مبدأ "أنا أب، فكيف لا ينفذ ما أقوله". فالإصرار والعناد في تلك اللحظة ينهك الطرفين. والذي يُنتظر من الأب هنا هو ترك الأمر للزمن، وهذا هو التصرف السليم. فلا ينبغي لا للأم ولا للأب معاندة أطفالهما. وإنما يجب أن ينفذ الأبوان أحياناً ما يقوله أو يطلبه الطفل أيضاً. بحيث يقرَّان له بالحق أحياناً.وينبغي أن لا يقتصر الاعتناء بالطفل والاهتمام به على أوقات المساء فحسب، وإنما يكون ذلك كلما كان هناك فراغ. وينبغي أن يستصحب الأب ابنه أحياناً بمعزل عن الأم إلى التسوق، إلى السينما، إلى الحديقة... فكلما قضى الأب والابن وقتاً أطول مع بعضهما كلما زادت معرفتهما وثقتهما ببعضهما أكثر. يجب تحقيق تقارب كبير لدرجة يمكن لأحدهما أن يقول عند سماع خطأ بحقه: "لا إن أبي لا يمكن أن يؤذي نملة، أو إن ابني رحيم فأنا أعرفه".أثبتت دراسة فرنسية أن الطفل الذي يلقى الاهتمام والرعاية من أمه فقط دون أبيه يكون أكثر إصابة بالأمراض من غيره. وتقول الدراسة أيضاً أن للأب دوراً مهمًّا كبيراً في التطور الذهني لدى الطفل، وأن الطفل يشعر بتأثير الأب وهو في عمر الستة أشهر.والطفل لا ينسى ما يُفعل له أبداً.